أحمد زياد ناصر

الفصل الأول: الرجل الذي طرح أسئلة - سقراط وأفلاطون

قبل زهاء 2.400 سنة في أثينا، أُعدِم رجل لطرحه أسئلةً كثيرةً. كان يوجد فلاسفة قبله، غير أن الأمر ما شاع حقًّا إلّا مع سقراط. إن كان للفلسفة راعٍ شفيع، فهو سقراط.

بأنفه الأفطس، وقِصَره وبدانته، وملبسه الرث، وغرابته إلى حد ضئيل - فلم يوائم سقراطُ الناس. على الرغم من كونه قبيح الجسد ومتّسخه أحيانًا، فقد كان ذا جاذبية عظيمة وذهن ألمعيّ. كل من في أثينا وافق على أن أحدًا ما كان مثله تمامًا، ومن المحتمل أنه لن يكون مجددًا. كان فريدًا. لكنه كان إلى جانب ذلك مزعجًا جدًّا. لقد رأى إلى نفسه واحدًا من ذباب الفرس ذي اللسعة الكريهة - شخصًا مضايقًا يثير الناس من سباتهم. إنها مثيرة للغيظ، لكنها لا تسبب ألمًا حادًّا. مع هذا، فلم يوافق على ذلك كل من في أثينا. قد أحبه البعض، واعتقد آخرون أنه تأثير خَطِر.

كان في ريعان شبابه جنديًّا شجاعًا يقاتل في الحروب البيلوبونية ضد الإسبرطيين وحلفائهم. في منتصف عمره، دَلَف في أرجاء السوق معترضًا سبيل الناس من وقت إلى آخر وطارحًا عليهم أسئلة رابكة. كان هذا كل ما فعله أو أنقص أو أزيد. بيد أن الأسئلة التي طرحها كانت حادة كالموسى. بدت مباشرة، لكنها ما كانت كذلك.

ومثال هذا كان حواره مع أوتيديموس (Euthydemus). سأله سقراط إن كان كون المرء مخادعًا يماثل اعتباره لا أخلاقيًا. فيردّ أوتيديموس بالإيجاب القاطع. لقد خال أن هذا الأمر كان واضحًا. غير أن سقراط سأله: ماذا لو كان صديقك جدّ محبط وقد يقتل نفسه، وسرقتَ أنت سكينه؟ أليس هذا فعلًا مخادعًا؟ بالطبع هو كذلك. لكن أليس *أخلاقيًّا* أن تفعل هذا بدلًا من كونه *لا أخلاقيًّا*؟ إنه أمر حسن، وليس سيئًا - على الرغم من أنه فعل مخادع. يردّ أوتيديموس بالإيجاب، الذي صار الآن مقيدًا بالعُقَد. إن سقراط بضربه مثالًا معاكسًا ذكيًّا أظهر أن تعليق أوتيديموس العام القائل إن كونك مخادعًا ليس أمرًا أخلاقيًّا لا ينطبق على كل موقف. لم يكن أوتيديموس مدركًا هذا الأمر من قبل.

مرةً بعد مرة، برهن سقراط على أن الناس الذين قابلهم في السوق ما كانوا يعرفون حقًّا هذا الذي اعتقدوا أنهم عرفوه. فقد يستهلّ قائد عسكري حوارًا يكون واثقًا فيه تمامًا أنه عرف ما تعني 'الشجاعة'، غير أنه بعد عشرين دقيقة برفقة سقراط لسوف يغادر حائرًا في أمره. لا بد أن هذه التجربة كانت مقلقة. لقد أحب سقراط أن يكشف عن حدود ما فهمه الناس حقًّا، وأن يسائل تلك الافتراضات التي بنى عليها الناس حيواتهم. لقد كان نجاحًا هذا الحوار الذي يخوضه وينتهي بحمل الجميع على إدراك ضآلة ما كانوا يعرفونه. وهذا أفضل بكثير من مواصلة الاعتقاد بفهمك أمرًا ما بينما أنت لا تفهمه.

كان أبناء الأغنياء في عهد الأثينيين سيُبعَث بهم للدراسة على يد السفسطائيين. وكان هؤلاء السفسطائيون معلمين بارعين سيمرّنون تلاميذهم على فن الخطابة. وقد كانوا يطلبون مقابل هذا أجرًا مرتفعًا. أما سقراط فعلى النقيض من ذلك، إذ لم يكن يطلب أجرًا مقابل خدماته. وقد ادّعى في الواقع أنه لا يعرف شيئًا، فما بالك في أن يعلّم؟ لم يمنع هذا التلاميذ من أن يفدوا إليه وينصتوا إليه في محاوراته. لكن هذا لم يجعله محبوبًا بين السفسطائيين أيضًا.

ذهب صديقه شيروفون (**Chaerophon**) يومًا إلى عرّافة أبولون في دلفي. كانت العرافة امرأة عجوزًا حكيمة، ووسيطة الوحي التي ستجيب عن الأسئلة التي يطرحها زائروها. أما أجوبتها فكانت عادة في شكل أحجيّة. سألها شيروفون: «أيوجد أحدٌ أكثر حكمة من سقراط؟». فجاء الجواب: «لا، ما من أحد أكثر حكمة من سقراط».

عندما أعلم شيروفون سقراطَ هذا الأمر لم يصدقه في بادئ الأمر. لقد حيّره هذا فعلًا. فقد تساءل: «أنّى لي أن أكون أكثر الأثينيين حكمة في حين أنني لا أعرف إلا القليل جدًّا؟». كرّس سنيناً يحاور الناس فيها كي يرى إن كان أحد أكثر حكمة منه. وأدرك أخيرًا أن العرافة عنت ذلك وكانت محقّة فيه. كان كثير من الناس جيدًا في مختلِف الأشياء التي عملها - النجارون كانوا جيدين في النجارة، والجنود كانوا عارفين في القتال. ولكن ما من أحد منهم كان حكيمًا بحق. لم يعرفوا حقًّا ما كانوا يتحدثون عنه.

تُشتق كلمة «فيلسوف» من الكلمتين اليونانيتين اللتين تعنيان «حب الحكمة». انتشر التقليد الغربي في الفلسفة -والذي يتبعه هذا الكتاب- من اليونان القديمة عبر أجزاء شاسعة من العالم، في وقت شهد به تلاحقًا مع أفكار من الشرق. أما ضرب الحكمة الذي يقدّره فيستند إلى الحجاج الجدلي والتفكير الاستدلالي وطرح الأسئلة، وليس إلى الاعتقاد بالأشياء لمجرد أن شخصًا مرموقًا قال لك إنها صادقة. لم تكن الحكمة لسقراط هي معرفة حقائق كثيرة، أو معرفة كيفية عمل شيء ما. إنما عنى بها فهم طبيعة وجودنا الحقة، وما يتضمن ذلك من إدراك حدود ما في وسعنا أن نعرفه. وفلاسفة اليوم يطبقون على نحو أكثر أو أقل ما كان يفعله سقراط: طرح أسئلة عسيرة، والتبصر في العلل والأدلة، والكفاح في سبيل الإجابة عن بعض أهم الأسئلة التي يمكننا أن نطرحها على أنفسنا عن طبيعة الواقع والنحو الذي ينبغي لنا أن نسلكه في عيشنا. مع ذلك، فعلى النقيض من سقراط، أفاد الفلاسفة الحداثيون من ما يقارب ألفين وخمسمئة سنة من التفكير الفلسفي كي يبنوا عليه. يستعرض هذا الكتاب أفكار بعض المفكرين الرئيسين الذين كتبوا في هذا التقليد من الفكر الغربي، وهو تقليد استهلّه سقراط.

طرح سقراط المتواصل للأسئلة هو ما جعله حكيمًا، وكان راغبًا دائمًا في مناقشة أفكاره. لقد أعرب عن أن الحياة لا تستحق أن تعاش إلا إن فكرت في ما تفعله. حسنٌ هو الوجود الذي يخلو من امتحان له بالنسبة إلى البهيمة، أما إلى الإنسان فكلّا.

على غير العادة بالنسبة إلى فيلسوف، فقد رفض سقراط أن يخطّ أي حرف. كان الكلام له يفضل على الكتابة بأضعاف. فالكلمات المخطوطة تعجز عن أن ترد مجيبةً؛ إنها غير قادرة حتى على أن تشرح لك شيئًا عندما لا تفهمها. كان الحوار وجهًا لوجه أفضل بكثير، كما أقر سقراط. يمكننا في الحوار أن نأخذ في حسباننا نوع الشخص الذي نتكلم معه، كما في وسعنا أن نهيئ ما نقول حتى نضمن أن تكون الرسالة مفهومة. وهو إذ كان رافضًا أن يخط شيئًا، فنحن إنما عبر عمل تلميذه اللامع أفلاطون تكوّن لدينا تصور كبير عما اعتقد به هذا الرجل العظيم وتناوله مجادلًا. لقد كتب أفلاطون سلسلة محاورات بين سقراط والناس الذين ساءلهم. وتُعرف بال*محاورات الأفلاطونية*، وهي أعمال أدبية عظيمة بقدر ما هي فلسفية - لقد كان أفلاطون على نحو ما شكسبير عصره. وينشأ لدينا بقراءة هذه المحاورات حسّ عن النحو الذي بدا عليه سقراط، وإلى أي حد كان ذكيًّا ومغيظًا.

ولكن الأمر في الواقع ليس بهذا الوضوح، إذ إننا لا نقدر دائمًا أن نحكي إن كان أفلاطون يدوّن ما قاله سقراط حقًّا، أو أنه كان يُقوِّل هذه الشخصية التي يدعوها «سقراط» أفكارًا هي من بنات أفكاره.

من بين الأفكار التي يعتقد أنها لأفلاطون وليست لسقراط، هي أن العالم مغاير تمامًا لما يبدو عليه. إذ يوجد اختلاف شديد بين المظهر والواقع. وكثير منا يتوهم أن التمظهرات هي الواقع. نخال أنفسنا على دراية، غير أننا لسنا كذلك. اعتقد أفلاطون أن الفلاسفة وحدهم يفهمون كيف يبدو العالم حقًّا. فهم يكتشفون طبيعة الواقع بالتفكير وليس بالاستناد إلى حواسهم.

وصف أفلاطون، كي يعضد هذه النقطة، كهفًا. في هذا الكهف أشخاص مقيدون بالسلاسل ويقابلهم جدار. يمكنهم أن يروا قبالتهم ظلالًا مترجحة يعتقدون أنها أشياءُ حقيقية. لكنها ليست كذلك. فما يرونه مجرد ظلال مصدرها موضوعات كائنة بإزاء نار هي خلفهم. يقضي هؤلاء الأشخاص حيواتهم كاملة ظانين أن الظلال الساقطة على الجدار هي العالم الحقيقي. ويتحرر واحد منهم بعد ذلك من سلاسله ويلتفت إلى النار. يكون بصره في بادئ الأمر مُغشّى، لكنه يبدأ بعد ذلك برؤية المكان الذي يحيط به. يتعثر طريقه خارجًا من الكهف، ثم يتأتى له أخيرًا أن يبصر الشمس. عندما يعود إلى الكهف، لا يصدقه أحد في ما عليه أن يخبرهم عنه بشأن العالم الخارجي. مَثَل هذا الإنسان الذي يتحرر من السلاسل كمثل الفيلسوف. فهو يبصر في ما وراء التمظهرات. أما الأناس العاديون ففكرتهم عن الواقع ضئيلة لأنهم يكتفون بالنظر إلى ما يقع قبالتهم عوضًا عن التفكير فيه عميقًا. مع أن التمظهرات مضللة. الظلال هي ما يرونه، وليس الواقع.

ترتبط قصة الكهف هذه بما صار يُعرف *بنظرية المُثُل الأفلاطونية*. أيسر السبل إلى فهم هذا ماثلة في ضرب مثال على ذلك. فكر في كل الدوائر التي رأيتها في حياتك. أكانت أي واحدة منها دائرة مثالية؟ لا، ما من دائرة كانت مثالية تمامًا. في دائرة مثالية، كل نقطة على محيط الدائرة تبعد عن المركز بالمسافة نفسها بالضبط. لا يتحقق تمامًا هذا الأمر في الدوائر الواقعية أبدًا. لكنك فهمت ما قصدتُ عندما استخدمت الكلمتين «دائرة مثالية». فما الدائرة المثالية إذًا؟ سيقول أفلاطون إن مثال الدائرة المثالية هو صورة الدائرة. عليك إن أردت أن تفهم ما الدائرة، أن تركز فكرك في صورة الدائرة، لا في الدوائر الواقعية التي تستطيع أن ترسمها وتختبرها عن طريق حاستك البصرية، وهي جميعها ناقصة على نحو ما. قد فكّر أفلاطون بالمِثْل في أنك إن رغبت في فهم ما تعنيه الخيرية، فعليك أن تركز فكرك في صورة الخيرية، لا في أمثلة معينة عليها شهدتها [في حياتك]. الفلاسفة هم أنسب الناس للتفكير في الصور على هذا النحو المجرد؛ الناس العاديون يضلّهم العالم إذ يدركونه من خلال حواسهم.

اعتقد أفلاطون أن على الفلاسفة أن يعتلوا الحكم وتكون لهم السلطة السياسية كاملةً ما داموا يحسنون التفكير في الواقع. في *الجمهورية*، أشهر مؤلفاته، وصف أفلاطون مجتمعًا خياليًّا فاضلًا (مثاليًّا). سيكون الفلاسفة في مثل هذا المجتمع على قمته، وسيحصلون على تعليم خاص، غير أنهم سيضحون بمباهجهم من أجل المواطنين الذين ينضوون تحت حكمهم. ودونهم سيكون هؤلاء الجنود الذين دُرِّبوا كي يدافعوا عن المدينة، ودون هؤلاء الأخيرين سيكون العمال الحرفيون. ستوجد هذا المجموعات الثلاث في حال اتزان مثالي كما اعتقد أفلاطون، وكان هذا الاتزان أشبه بذهن رزين موزون يضبط فيه الجانبُ العقلاني العواطفَ والرغائب. ولسوء الحظ، فقد كان نموذجه عن المجتمع مضادًّا للديمقراطية، هذا إلى أنه سيبقي على الناس تحت توجيه بمزيج من الأكاذيب والإكراه. وكان سيمنع غالب الفنون، ومرد هذا أنه اعتقد بأنها قدّمت تمثّلات زائفة عن الواقع. يرسم المصورون التمظهرات، لكن التمظهرات خادعة في تعبيرها عن الصور. كل جانب من الحياة في جمهورية أفلاطون المثالية سيكون محكومًا بشدة من فوق. وهذا ما سندعوه في حاضرنا الدولة الشمولية. لقد اعتقد أفلاطون أن السماح للناس بالتصويت كان أشبه بترك قيادة السفينة للركّاب – فمن الأفضل بكثير أن نترك لمن عرفوا ما يفعلون الأخذَ بزمام الأمور.

كان أثينيّو القرن الخامس مختلفين إلى حد ما عن المجتمع الذي تخيله أفلاطون في *الجمهورية*. كانت ديمقراطية الأفراد، مع أن 10 بالمئة من السكان فقط استطاعوا أن يصوّتوا إذ ذاك. فالنساء والعبيد على سبيل المثال كانوا يُستبعدون تلقائيًّا. لكن المواطنين سواسية أمام القانون، وكان يوجد نظام يانصيب دقيق حتى يتأكد حصول جميع الأفراد على فرصة عادلة في التأثير في القرارات السياسية.

الأثينيون بالجملة لم يقدّروا سقراط كثيرًا على نحو ما فعل أفلاطون. وشعر العديد منهم أن سقراط كان خَطِرًا وأنه كان يقوّض الحكومة عن عمد. في 399 قبل الميلاد، عندما كان سقراط في السبعين من عمره، صحبه واحد منهم، وهو ميليتوس (**Meletus**)، إلى المحكمة. ادّعى أن سقراط كان يستخف بالآلهة الأثينية، مبتدعًا آلهة جديدة من عنده. كما أشار إلى أن سقراط كان يعلّم النشء الأثينيين أن يسيؤوا السلوك،

مشجعًا إياهم على الانقلاب على السلطات. كانت هذه اتهامات جدّ خطيرة. ربما يكون سقراط قد أثنى حقًّا تلاميذه عن اتباع دين الدولة، وثمة بعض الأدلة التي تثبت أنه كانت تطيب له السخرية من الديمقراطية الأثينية. سيكون هذا متسقًا مع شخصيته. لكن ما هو حقيقي دون شك أن الكثير من الأثينيين صدق الاتهامات.

لقد صوّتوا في ما إن كان مذنبًا أم لا. فوق النصف فقط من المواطنين الذين شكّلوا هيئة المحلّفين الضخمة، وكان عددهم **501**، اعتقدوا أنه مذنب، وحكموا عليه بالموت. لكنه لو أراد لكان قادرًا من المحتمل على أن يقدم أسبابًا مقنعةً تعفيه من حكم الإعدام. غير أنه عوضًا عن ذلك، بإخلاصه لسمعته عن كونه شخصًا مثيرًا للضيق،[1] أزعج الأثينيين أكثر من قبل حتى بجداله أنه ما فعل شيئًا خاطئًا، وأن عليهم في الحقيقة أن يكافئوه بمنحه وجبات مجانية للعيش بدلًا من عقابه. غير أن الأمر لم يجرِ كما يجب.

تقرر موت سقراط بإجباره على شرب سمّ مصنوع من الشوكران، وهي نبتة تشل الجسد تدريجيًّا. ودع سقراط زوجته وأبناءه الثلاثة، ثم جمع تلامذته حواليه. إن كانت له فرصة أن يستمر في العيش بهدوء، دونما طرح أي أسئلة صعبة، فإنه لن يقبل مثل هذه الفرصة. لقد كان لديه صوت في باطنه يملي عليه أن يداوم على سؤال كل شيء، وما استطاع أن يخون مثل هذا الصوت. ثم شرب كأس السم. وما عتّم أن مات.

في محاورات أفلاطون، مع ذلك، استمر سقراط في العيش. هذا الرجل الشديد الذي ما برح يطرح أسئلة ويفضّل الموت على أن يتوقف عن التفكير في ما هي الأشياء عليه في الواقع، صار إلهامًا للفلاسفة مذ ذاك الحين.

كان تأثير سقراط المباشر ماثلًا في هؤلاء الذين أحاطوا به. تابع أفلاطون التعليم بروح سقراطيّ بعد موت معلّمه. كان أكثر تلامذته إثارة للإعجاب إلى حد بعيد هو أرسطو: مفكر من نوع جد مختلف عن كلا سقراط وأفلاطون.

---

1 في الأصل يستخدم المؤلف كلمة «**Gadfly**»، وتعني «النُّعَرَة» أو ذبابة الخيل والماشية الزرقاء التي تدخل في أنوفها فتهيجها، وتسقط على الدواب فتؤذيها. ومن هنا، فهي كلمة تشير إلى الشخص المزعج الدائم الانتقاد للناس، فيثيرهم ويوقظهم من سباتٍ ما على رغم أنوفهم. (المترجم)

الفصل الثاني: السعادة الحقة - أرسطو

«طائر سنونو واحد لا يجعل من الفصل صيفًا». قد يجول في بالك أن هذا التعبير لشكسبير أو شاعر آخر عظيم. يبدو أن الأمر ينبغي أن يكون كذلك. لكنه في الواقع تعبير من كتاب أرسطو *الأخلاق النيقوماخية*، وقد سمي كذلك لأنه كرّسه لابنه نيقوماخوس. تثوي النقطة التي كان يصوغها في أنه كما يتطلب الأمر وصول أكثر من طائر سنونو واحد حتى نتأكد حلول فصل الصيف، وأكثر من يوم دافئ، فإن لحظات تلذذ قليلة لا تعد سعادةً حقّةً. لم تكن السعادة لأرسطو مسألة بهجة قصيرة الأمد. وعلى نحو مثير للدهشة، اعتقد أن الأطفال لا يمكنهم أن يكونوا سعداء. يبدو هذا غير معقول. إن لم يكن في وسع الأطفال أن يكونوا سعداء، فمن في وسعه؟ لكن هذا يظهر لنا إلى أي مدًى كانت نظرته إلى السعادة مختلفة مقارنة بنا. الأطفال قد بدؤوا حياتهم لتوّهم، وما عاشوا حياةً تامةً بأي معنًى. تستوجب السعادة الحقة حياة أطول - كما يجادل أرسطو.

كان أرسطو تلميذ أفلاطون، كما كان هذا الأخير تلميذ سقراط. لذا يشكل هؤلاء المفكرون الثلاثة سلسلةً: سقراط-أفلاطون-أرسطو. هكذا هي السبيل غالبًا. لا يظهر العباقرة عادة من عدم. فالغالب منهم كان له معلّم ملهِم. غير أن أفكار هؤلاء الثلاثة مختلفة جدًّا. إنهم لم يردّدوا ببساطة ما كانوا قد تعلموه، فكلٌّ منهم امتلك مسلكًا أصيلًا. كي نبسط الأمر: كان سقراط متكلمًا عظيمًا، وكان أفلاطون كاتبًا بديعًا، وكان أرسطو مهتمًّا بكل شيء. فكّر سقراط وأفلاطون في العالم الذي نراه كأنه انعكاس باهت لواقع حقيقي لا يمكن بلوغه إلا بالفكر الفلسفي المجرد. أما أرسطو، على النقيض من ذلك، كان مأخوذًا بتفاصيل كل ما يحيط به.

لسوء الحظ، كل ما نجا من كتابات أرسطو فهو في شكل ملاحظات مأخوذة من محاضراته. لكن هذه المحفوظات المسجّلة من فكرة ما زالت تشكل تأثيرًا هائلًا في الفلسفة الغربية، حتى لو كان أسلوب كتابتها في الغالب جامدًا. بيد أنه لم يكن مجرد فيلسوف: بل كان مولعًا بعلم الحيوان (الزولوجيا)، وعلم الفلك، والتاريخ، والسياسة، والدراما.

وُلد في مقدونيا [في مدينة أسطاغيرا تحديدًا] عام 384 قبل الميلاد، وبعد دراسته مع أفلاطون والترحال مسافرًا والعمل معلّمًا خاصًّا للإسكندر الكبير، أنشأ أرسطو مدرسته الخاصة به في أثينا وسُميت اللوقيون (**Lyceum**). كانت هذه واحدة من أشهر مراكز التعلّم في العالم القديم، أشبه قليلًا بالجامعة الحديثة. ومن هناك بعث بباحثين خارجًا فعادوا حاملين معهم معلومات جديدة عن كل شيء من المجتمع السياسي إلى علم الأحياء. كما استهلّ مكتبةً مهمة. في لوحة شهيرة من عصر النهضة صوّرها رفائيل، *مدرسة أثينا*، يشير أفلاطون إلى الأعلى حيث عالم الصور (المُثُل)، أما أرسطو -على النقيض من ذلك- فيهوي بيده صوب العالم الماثل قبالته.

كان أفلاطون سيكتفي بالتفلسف من على أريكة، أما أرسطو فابتغى أن يستكشف الواقع الذي نَخبُره من خلال حواسنا. رفض نظرية معلّمه في المُثُل، معتقدًا عوضًا عن هذا أن السبيل إلى فهم أي مقولة عامة أن تختبر فاحصًا أمثلة معينة عنها. لذا فكِّر في أنك محتاج كي تفهم ما القِطّ إلى أن تنظر إلى القططة الواقعية، لا إلى أن تفكر على نحو تجريدي في مثال القطّ.

كان من الأسئلة التي قلّبها أرسطو في ذهنه سؤال «كيف علينا أن نعيش؟». كلا سقراط وأفلاطون طرح السؤال قبله. الحاجة إلى جواب عن هذا السؤال جزء من ما يجذب الناس إلى الفلسفة بادئ ذي بدء. كان لأرسطو جوابه الخاص عن هذا السؤال. تثوي الصيغة البسيطة للجواب في هذا: اسعَ إلى السعادة.

ولكن ما الذي يعنيه التعبير «اسعَ إلى السعادة»؟ اليوم إن أُخبر أكثر الناس أن يسعوا إلى السعادة فإنهم سيفكرون في طرائق يمكنهم من خلالها أن يمتّعوا أنفسهم. ربما تنطوي السعادة بالنسبة إليك على رحلات عطلة استوائية، أو الذهاب إلى مهرجانات موسيقية أو حفلات، أو قضاء الوقت مع الأصدقاء. وقد تعني أيضًا أن تستلقي طاويًا قدميك مع كتابك المفضّل، أو زيارة معرض فني. ولكن مع أن هذه الأشياء قد تكون مقوّمات في حياة طيبة لأرسطو، فإنه بالتأكيد لم يعتقد أن الطريقة الأمثل كي تعيش كانت في أن تخرج ساعيًا إلى الملذات بهذه الطرائق. فهذا وحده في نظرته لن يكون حياة طيبة. الكلمة اليونانية التي استخدمها أرسطو هي *اليودايمونيا* **eudaimonia**[2] (تُلفظ 'you-die-moania'، ولكنها تعني النقيض). تُترجم عادة بـ'الازدهار' أو 'النجاح' عوضًا عن 'السعادة'. إنها أكثر من هذا الضرب من الإحساسات المبهجة التي يمنحك إياها أكل مثلّجات بطعم المَنجو أو مشاهدة فريقك الرياضي المفضل يفوز. ليست *اليودايمونيا* عن لحظات الغبطة الزائلة أو عن النحو الذي تشعر به. إنها أكثر موضوعية من هذا. من الصعب إلى حد ما أن نستوعب الأمر ونحن قد اعتدنا التفكير في أن السعادة إنما هي عن النحو الذي نشعر به وحسب.

فكّر في وردة ما. إن سقيتها الماء ومنحتها ضوءًا كافيًا وربما غذّيتها قليلًا، فإنها ستنمو وتزهر. إن أهملتها وأبقيتها في الظلام وتركت الحشرات تقضم أوراقها وسمحت لها أن تجفّ، فإنها ستذبل وتموت، أو في أحسن الأحوال فإنها ستغدو نبتةً غير جذّابة جدًّا. في وسع البشر أن يزدهروا كالنبات أيضًا، مع أننا على عكس النبات نصطنع خيارات لأنفسنا: إننا نقرر ما نريد فعله وما نريد أن نكون عليه.

كان أرسطو مقتنعًا بأن هناك شيئًا كالطبيعة الإنسانية، فالكائنات البشرية لها وظيفة ما كما يعبّر عن الأمر. ثمّة طريقة في الحياة تلائمنا بأفضل ما يكون. وما يميّزنا من سائر الحيوانات والأشياء الأخرى إنما قدرتنا على التفكير وتعقّل ما ينبغي لنا فعله. استخلص أرسطو من هذا أن أفضل نوع من الحياة للكائن البشري إنما هو الذي نُعمل فيه قوى تعقّلنا.

اعتقد أرسطو على نحو مثير للدهشة أن الأشياء التي تجهلها -وحتى الأحداث التي تلي موتك- يمكن أن تساهم في *اليودايمونيا* الخاصة بك. يبدو هذا غريبًا. بافتراض أن ليس من حياة آخرة، فأنّى لأي شيء يحدث بعد رحيلك أن يؤثر في سعادتك؟ حسنًا، تخيّل أنك والد وأن سعادتك تعتمد في جزء منها على الآمال لمستقبل أولادك. إن اعتلّ ولدٌ -على نحو محزن- اعتلالًا خطيرًا بعد موتك، فإن هذا سيؤثر في *اليودايمونيا* الخاصة بك. في نظر أرسطو فإن حياتك ستصير إلى الأسوأ، حتى مع أنك لن تكون على دراية باعتلال ولدك ولن تكون على قيد الحياة. يفصح هذا جيدًا عن فكرته في أن السعادة ليست مجرد مسألة تختص بالنحو الذي تشعر به. السعادة بهذا المعنى هي جملةُ ما أنجزت في الحياة، هي شيء يمكن أن يتأثر بما يحدث لهؤلاء الذين تهتم بشأنهم. الحوادث الخارجة عن نطاق سيطرتك والمعرفة شيئان يؤثران في هذا أيضًا. فأمر كونك سعيدًا أم لا يعتمد في جزء منه على الحظ الحسن.

السؤال الأساسي هو: «أي شيء هذا الذي في وسعنا فعله كي نزيد فرصتنا من *اليودايمونيا*؟». كان جواب أرسطو عن هذا: «طوِّر النوع القويم من الشخصية». عليك أن تشعر بالنوع القويم من العواطف في الوقت الملائم، وهذه ستقودك إلى التصرف جيدًا. سيكون هذا إلى حد

[2] اليودايمونيا اسم معنى مشتق من اليونانية «*eudaimonikos*». معنى المقطع «eu» هو الشيء الجيد أو الحسن، والمقطع «daimon» أو «daemon» هو الروح الحارس أو الرب الحافظ أو شبه الإله. وأشباه الآلهة كثر في الميثولوجيا اليونانية، مثل أدونيس وأخيلوس وليموس وطاليّا، إلخ. وهذا المعنى ذو دلالة شهيرة عند اليونانيين آنذاك، إذ كان يُعتقد أن روحًا حارسًا يخصص بكل مولود يكون له هاديًا وحاميًا، ويمثل أسمى تعبير ممكن عن طبيعة هذا المولود. وهذا الروح أو الديمون جانب منه إنسان وآخر إله، كان الرومان يطلقون عليه اسم «جنيّ»، وكان الجانب غير الخيّر من هذا الروح يدعى في الفلكلور العربي «الجنيات»، ويحدد هذه الأرواح زوس كبير الآلهة. راجع أي كتاب في الميثولوجيا الكلاسيكية لتعرف أكثر.

ما أمر يتعلق بالنحو الذي رُبّيت عليه، ما دامت الطريقة المثلى لإنماء عادات حسنة هي أن تمارسها منذ سن مبكرة. وهنا يجيء دور الحظ أيضًا. الأنماط الحسنة من السلوك هي فضائل، أما السيئة فرذائل.

فكّر في فضيلة الشجاعة في فترة الحرب. ربما يكون الجندي في حاجة إلى تعريض حياته للخطر كي يحفظ بعض المدنيين من عدوان الجيش. الشخص *الأهوج* لا تعنيه سلامته أيًّا كان الأمر. فهو قد يقتحم موقفًا خطرًا أيضًا، حتى ربما عندما لا يكون في حاجة إلى ذلك، بيد أن هذه ليست شجاعة حقّة، إنما تقبل مخاطرة متهور. وعلى منتهى الجهة الأخرى، فإن الجندي *الجبان* يعجز عن التغلب على خوفه بما يكفي كي يتصرف على نحو ملائم ألبتة، ولسوف يُشلّ مرعوبًا في اللحظة عينها التي يكون الموقف في أمسّ الحاجة إليه. أما الشخص الشجاع أو الجسور فإنه في مثل هذا الموقف، على أي حال، ما زال يشعر بالخوف، لكنه قادر على أن يقهر هذا الخوف ويبادر إلى التصرف. لقد اعتقد أرسطو أن كل فضيلة إنما تقع وسط حدين أقصيين على هذه الشاكلة. فالشجاعة هَهُنا حد أوسط بين الهَوَج والجبن. يعرف هذا أحيانًا بمذهب أرسطو في الوسط الذهبي (**Golden Mean**).

تناول أرسطو للأخلاق ليس ذا أهمية تاريخية فقط. يعتقد العديد من الفلاسفة الحديثين أنه كان محقًّا بشأن أهمية إنماء الفضائل، وأن نظرته إلى ماهية السعادة كانت دقيقة وموحية. عوضًا عن التوق إلى زيادة بهجتنا في الحياة، فإنهم يرون أن علينا محاولة أن نصير أناسًا أفضل ونقوم بالصحيح من الأمور. هذا ما يجعل سير الحياة حسنًا.

كل هذا يجعل الأمر كما لو أن أرسطو كان مهتمًّا بنماء الفرد الشخصي. لكنه ما كان كذلك. الكائنات البشرية حيوانات سياسية، كما يجادل أرسطو. إننا محتاجون إلى أن تكون لنا القدرة على العيش مع الآخرين، ومحتاجون إلى نظام عدالة كي نتصدى للجانب الأكثر ظلمة من طبيعتنا. لا يمكن تحقيق *اليودايمونيا* إلا بالإضافة إلى الحياة في مجتمع. إننا نحيا معًا، ولنا حاجة إلى أن نجد سعادتنا من خلال التفاعل جيدًا مع هؤلاء الذين يحيطون بنا في دولة سياسية محكمة التنظيم.

كان يوجد مع ذلك تأثير جانبي تَعِس لألمعية أرسطو. لقد كان بالغ الحصافة، وكان بحثه شاملًا جدًّا بحيث إن كثيرًا من الذين قرؤوا عمله اعتقد أنه كان محقًّا في كل شيء. كان هذا سيئًا للتقدم، وسيئًا للفلسفة في التقليد الذي استهله سقراط. قَبِل معظم الباحثين نظراته عن العالم لمئاتٍ من السنين تلت موته باعتبارها صائبة حتمًا. ولو استطاعوا أن يثبتوا أن أرسطو قال شيئًا ما، لكان كفاهم ذلك.[3] هذا ما يدعى أحيانًا 'الحقيقة بالاستناد إلى السلطة' – وهو اعتقادك أن شيئًا يجب يكون صائبًا لأن ممثل سلطة مهمًّا قال إنه كذلك.

ما الذي سيحدث في اعتقادك إن ألقيت قطعة خشب وقطعة معدن ثقيل من الحجم نفسه ومن مكان عالٍ؟ أي قطعة ستضرب الأرض أولًا؟ اعتقد أرسطو أن القطعة الأثقل المصنوعة من المعدن ستسقط أسرع. لكن ليس هذا الذي يحدث في الواقع. إنهما تسقطان بالسرعة نفسها. لكن ما دام أرسطو الذي أعلن كون ذلك صائبًا، فقد اعتقد الجميع تقريبًا طيلة فترة العصور الوسطى أن على هذا أن يكون صائبًا. فلا حاجة إلى أي دليل آخر. يُعتقد أن غاليليو غاليلي في القرن السادس عشر أسقط كرة خشبية وقذيفة معدنية من برج بيزا المائل كي يختبر هذا الأمر. كلتا الكرتين وصلت إلى الأرض في الوقت نفسه. لذا كان أرسطو مخطئًا. غير أن هذا كان من السهل كفايةً أن يُكشف عنه أبكر بكثير.

---

[3] «في العصور الوسطى المتأخرة، على سبيل المثال، صارت فلسفة أرسطو عقيدة راسخة لا تناقَش. وكانت أقواله تُستحضَر لحسم الجدال لا لإثرائه. وقد بلغ شخص أرسطو من الجلال والهيبة بحيث صار يعرف بـ "**Ille Philosophus**" (الفيلسوف، بألف لام التعريف). وصار الاستشهاد بقوله يعرف بـ "**ipse dixit**" (هو، نفسه، قال...)». المغالطات المنطقية: طبيعتنا الثانية وخبزنا المنطقي (فصول في المنطق غير الصوري)، عادل مصطفى، المجلس الأعلى للثقافة، ط1 2007، الفصل السابع، ص85.

ليس من روح أرسطو ألبتة في البحث أن تستند إلى سلطة شخص ما. هذا نقيض الروح الفلسفي أيضًا. فالسلطة في ذاتها لا تبرهن على أي شيء. كانت مناهج أرسطو الخاصة هي الاستقصاء والبحث والتعقل المنطقي الواضح. تزدهر الفلسفة بالجدال، واحتمال أن تكون على خطأ، وتحدي وجهات النظر، واستكشاف البدائل. لحسن الحظ، كان يوجد في غالب الأعصار فلاسفة مستعدون كي يفكّروا تفكيرًا نقديًّا في ما يقوله الآخرون لهم عن أشياء ينبغي أن تكون صائبة تمامًا. وواحد من هؤلاء الذين حاولوا التفكير على نحو نقدي في كل شيء إطلاقًا كان بيرون **(Pyrroh)** الشكّاك.

الفصل الثالث: نحن لا نعرف شيئًا - بيرون

ما من أحد يعرف شيئًا – وحتى هذا الأمر ليس يقينًا. عليك أن لا تستند إلى ما تخاله صائبًا. قد تكون على خطأ. كل شيء قد يخضع للسؤال، كل شيء يُعرض للشك. لذا فأمثل خيار هو أن تبقي ذهنك متحرّرًا. لا تتقيد بأي شيء، ولن تخيب. كان هذا التعليم الأساسي للشكية، وهي فلسفة كانت شائعة عديدًا من مئات السنين في اليونان القديمة وروما اللاحقة. على عكس أفلاطون وأرسطو، تجنب أكثر الشكيين تطرفًا الاعتقاد بآراء نهائية عن أي شيء أيًّا كان. كان اليوناني القديم بيرون (نحو 365-270 ق.م.) أشهر الشكيين، وربما أكثرهم تطرفًا، على الإطلاق. أما حياته فكانت غريبةً دونما ريب.

قد تظن نفسك عارفًا أنواع الأشياء كافة. إنك تعرف أنك تقرأ هذا الآن، على سبيل المثال. غير أن الشكيين سيعترضون على هذا. فكّر في الشيء الذي يدفعك إلى الاعتقاد بأنك تقرأ هذا فعلًا ولست تتخيل فحسب. أيمكنك أن تكون متأكدًا من صوابك؟ يبدو أنك تقرأ – هكذا يلوح لك الأمر. لكن قد يكون الأمر أنك تهذي أو تحلم (هذه فكرة سيطورها رينيه ديكارت بعد نحو ألف وثمانمئة سنة لاحقًا: انظر الفصل الحادي عشر). كان إصرار سقراط على أن كل ما عرفه كان أنه لا يعرف إلا القليل موقفًا شكيًّا أيضًا. أما بيرون فقد بالغ بهذا أكثر فأكثر. من المحتمل أنه بالغ به أكثر قليلًا.

إن صدقنا الحكايات عن حياته (وربما الأجدر بنا أن نكون على موقف الشك بإزاها أيضًا)، فإن بيرون قد احترف عدم التسليم بأي شيء. وعلى شاكلة سقراط، فإنه ما خطَّ شيئًا قطّ. لذا فإن ما نعرفه عنه إنما جاءنا عن طريق ما سجله الآخرون، غالبًا بعد قرون عديدة من وفاته. يخبرنا واحد من بين هؤلاء، وهو ديوجينس اللائرتي (Diogenes Laertius)، أن بيرون صار ذائع الصيت ورُسِم كاهنًا أكبر في إليس حيث عاش، وتكريمًا له فقد أُعفِي الفلاسفة من دفع أي ضرائب. ليس لدينا أي سبيل نتأكد بها صحة هذا، على الرغم من أنها تبدو فكرة جيدة.

بقدر ما في وسعنا أن نحكي، فإن بيرون قد عاش مطبّقًا شكيته بعدد من الطرق الاستثنائية كفايةً. كان وقته على هذه الأرض سيكون قصيرًا جدًّا لو لم يكن لديه أصدقاء يحمونه. أي شكاك متطرف يحتاج إلى إعانة من الأناس الأقل شكًّا، أو إلى حظ حسن جدًّا كي ينجو طويلًا.

وهاك النحو الذي عالج به الحياة. إننا غير قادرين على أن نثق بالحواس تمامًا. فهي تضللنا أحيانًا. ومن اليسير أن تخطئ بشأن ما يمكنك أن تراه في الظلام، على سبيل المثال. ما يبدو كالثعلب إنما هو مجرد قطة. كما يمكنك أن تظن أن أحدًا ناداك في حين أن هذا لم يكن سوى صوت حفيف الشجر. ولمّا كانت حواسنا كثيرًا ما تضللنا بما فيه الكفاية، فقد قرر بيرون أن لا يثق بهن ألبتة. هو لم يستبعد إمكانية أن الحواس قد تمنحه معلومات دقيقة، لكنه حافظ على ذهن منفتح إزاء هذه المسألة.

ولذا، بينما سيعتبر غالب الناس أن رؤية حافَة جرفٍ شديد التحدر شاهد قوي على الحمق البالغ في ما لو استمررت في السير، فإن بيرون لن يفعل. فقد يكون الأمر أن حواسه تضلله، لذا فهو لم يثق بهن. وحتى شعوره بأن أصبع قدمه ينثني على حافَة الجرف، أو أنه يميل إلى الأمام، لم يكن ليقنعه أنه يوشك أن يسقط نحو الصخور التي تدنوه. حتى إنه لم يكن من الواضح لديه إن كان السقوط على الصخور سيكون سيئًا لسلامته. أنى لنا أن نكون بهذه الثقة المطلقة؟ لقد وقفه أصدقاؤه، من المحتمل أنهم لم يكونوا شُكاكًا جميعًا، عن الوقوع في مكروه، لكنهم لو لم يفعلوا لكانت ستصيبه بلوى كل بضع دقائق.

لِمَ الخوف من الكلاب الشرسة إن لم تكن واثقًا بأنها ستؤذيك؟ لمجرد أنها تنبح وتكشر عن أسنانها وتركض نحوك لا يعني أنها ستعضك حتمًا. وحتى لو كانت ستفعل ذلك، فليس ضرورةً أن هذا سيؤذيك. لِمَ الاهتمام بالمرور القادم عندما تقطع الطريق؟ من الممكن أن لا تضربك هذه السيارات. من يعرف ذلك حقًّا؟ وأي اختلافات هذه التي سيسفر عنها كونك حيًّا أو ميتًا أيًّا ما كانت الحال؟ بنحوٍ ما، استطاع بيرون أن يحيا فلسفة اللا مبالاة الكاملة هذه ويقهر جميع العواطف وأنماط السلوك البشرية المعتادة والطبيعية.

هذه هي الأسطورة على أي حال. فبعض هذه القصص إنما حِيكَ كي يهزأ بفلسفته. لكن ليس محتملًا أن تكون هذه القصص كافة خيالية. على سبيل المثال، مشهور عنه أنه لزم الهدوء تمامًا في إبان الإبحار عبر واحد من أعتى الأعاصير التي شهدها أحد أبدًا. كانت الريح تمزق الأشرعه قِطَعًا والأمواج الهائلة تحطم السفينة. كل من حواليه كان مرعوبًا. لكن هذا كله لم يقلق بيرون بأقل ما يكون. ما دامت المظاهر غالبًا ما تكون مضللةً، فإنه لم يكن متأكدًا أنها ستتسبب أي أذًى. لقد قدر على أن يظل مطمئنًّا بينما كان حتى أمهر البحّارين مفزوعًا. بيَّن لنا أنه من الممكن أن تبقى لا مباليًا حتى في ظل مثل هذه الظروف. في هذه القصة صدًى للحقيقة.

زار بيرون الهند في شبابه. ربما هذا ما ألهمه نمط عيشه الغريب. فلدى الهند تراث عظيم من المعلمين الروحيين أو الجورُس (**Gurus**) الذين يخضعون أنفسهم لحرمان جسدي حاد ولا يصدق تقريبًا: يُدفَنون أحياءً، أو يعلقون أوزانًا بأجزاء حساسة من أجسادهم، أو يحيون أسابيعَ دونما طعام، يرومون بذلك تحقيق السكون الداخلي. أيًّا ما كانت التقنيات التي اتبعها كي يحقق ذلك، فيقينًا إنه مارس ما يعظ به. كما طبعت حال الصفاء الذهني على من حواليه بصمةً عميقة. وكانت علة أنه لم يَثُر إزاء أي شيء ماثلةً، كما يرى، في أن كل شيء إنما كان محض مسألة تحتمل الرأي والنظر. إن لم توجد أي فرصة للكشف عن الحقيقة، فلا حاجة إذًا إلى أن ننبري لأي شيء. في وسعنا أن ننأى بأنفسنا عن الاعتقادات الراسخة كافة، فدائمًا ما تنطوي هذه الاعتقادات على الوهم.

لو كنت قابلت بيرون، فالأحرى أنك كنت ستخاله مجنونًا. وربما كان كذلك على نحو من الأنحاء. لكن نظراته وسلوكه كانا منسجمين. كما كان ليعتقد أن مختلِف تيقّناتك إنما هي لا معقولة صرف وتقف عائقًا في سبيلك إلى سكينة الذهن. إنك كثيرًا ما تُسلّم بأشياء باعتبارها بديهية. يبدو الأمر كما لو أنك بنيت بيتًا على الرمل. ليست أساسات فكرك بالرسوخ الذي يحلو لك أن تعتقده ألبتة، وليس محتملًا أن تجعلك سعيدًا.

لقد لخّص بيرون فلسفته بدقة في شكل أسئلة ثلاثة على كل من يروم أن يكون سعيدًا أن يسألها:

كيف تبدو الأشياء حقًّا؟

أي سلوك ينبغي لنا أن نسلك إزاءها؟

ما الذي سيحصل لمن يتبنى هذا السلوك؟

كانت أجوبته بسيطة ومناسبة. أولًا، نحن عاجزون أبدًا عن معرفة ما يبدو عليه العالم حقًّا – هذا يتجاوز مقدرتنا. ما من أحد سيعرف الطبيعة النهائية للواقع قطعًا. لذا انسَ هذا الأمر. هذه النظرة معارضة تمامًا لنظرية المثل الأفلاطونية وإمكانية أن يحوز الفلاسفة معرفةً بها عن طريق التفكير المجرد (انظر الفصل الأول). ثانيًا، كنتيجةٍ لهذا، فعلينا أن لا نسْلِم أنفسنا إلى أي وجهة نظر. إذ إننا غير قادرين على معرفة أي شيء يقينًا، إنما ينبغي لنا أن نعلّق الحكم ونعيش حيواتنا على نحو لا نلتزم فيه بشيء. كل رغبة لديك تدل على أنك تعتقد بأفضلية شيء على آخر. فالتعاسة تنبع من عدم حصولك على ما تريد. لكنك عاجز عن معرفة أن شيئًا ما أفضل من أي شيء آخر. لذا، كان ظن بيرون أنك إن

أردت السعادة فعليك أن تحرر نفسك من الرغبات ولا تهتم بالنحو الذي تجري عليه الأشياء. هذه هي السبيل الصواب كي تحيا. أدرك أن شيئًا لا يهم. بهذه الطريقة، لن يؤثر شيء في حالك الذهنية، والتي ستكون حالًا من السكينة الداخلية. ثالثًا، إن اتبعت هذه التعاليم، فهاك ما سيحصل لك. أول ما ستبدأ به أن تظل صامتًا، ربما هذا لأنك لن تعرف ما تقول عن أي شيء. في نهاية المطاف، ستُحرَّر من كل قلق. هذا أفضل ما يمكنك أن تأمله أنت وأي امرئ في هذه الحياة. إنها أشبه بتجربة دينية تقريبًا.

هذه هي النظرية. بدت أنها مجدية لبيرون، مع أنه من الصعب أن نراها تتمخض عن النتائج نفسها لغالب البشرية. قلّة منا ستحقق مثل هذا النوع من اللا مبالاة الذي اقترحه. ولن يكون الجميع محظوظًا كفايةً كي يمتلك فريقًا من الأصدقاء الذين يحفظونه من أسوأ أخطائه. لو اتبع الجميع نصيحته في الواقع، فلن يظل هناك أحد كي يحفظ الشكاكين البيرونيين من أنفسهم، وستموت مدرسة الفلسفة هذه سريعًا إذ سيسقطون من على حواف الجُروف أو ويخطون قدّام المركبات المتحركة، أو ستفترسهم كلاب متوحشة.

نقطة الضعف الأساسية في نهج بيرون أنه انتقل من «لا يمكنك أن تعرف شيئًا» إلى النتيجة «لذا عليك أن تتجاهل غرائزك ومشاعرك عما يعتبر خَطِرًا». غير أن غرائزنا تحفظنا من العديد من الأخطار الممكنة. قد لا تكون موثوقة تمامًا، لكن هذا لا يعني أن علينا أن نتجاهلها تمامًا. حتى بيرون يُفترض أنه ابتعد عندما نبح عليه كلب: إنه لم يستطع أن يتغلب على ردود فعله التلقائية مهما كان حجم إرادته ذلك. لذا تبدو محاولة تطبيق الشكية البيرونية أمرًا فاسدًا. كما ليس من الواضح ما إن كان سلوك هذه الطريقة من العيش يجلب سلام الذهن الذي اعتقد بيرون أنها تجلبه. عساك تريد أن تسأل ما إن كانت السكينة تتأدّى حقًّا من خوض مثل هذه الأخطار التي خاضها. قد تكون ذات جدوى لبيرون، لكن ما الدليل على أنها ستكون ذات جدوى لك؟ كما قد تكون لستَ متأكدًا مئة بالمئة ما إن كان كلبٌ شرس سيعضك، لكن من المنطقي أن لا تخاطر إن كنت متأكدًا 99 بالمئة.

لم يكن الشُكّاك كافة في تاريخ الفلسفة متطرفين بقدر بيرون. يوجد تقليد عظيم من الشكية المعتدلة، من التشكيك أو السؤال عن الافتراضات والنظر من كثب إلى الدليل على ما نعتقد، دونما محاولة العيش كما لو أن كل شيء واقع في الشك طوال الوقت. هذا النوع من السؤال الشكّي هو في صميم الفلسفة. كل واحد من الفلاسفة العظام كان شاكًّا بهذا المعنى. هذا نقيض الدوجماطيقية. الشخص الدوجماطيقي هو الواثق جدًّا بمعرفته الحقيقة. الفلاسفة يتصدون للدوجما. إنهم يطرحون أسئلة عن سبب اعتقاد الناس بما يفعلون، وأي نوع من الدليل يمتلكون كي يسندوا به استنتاجاتهم. كان هذا ما فعله سقراط وأرسطو، وهو ما يفعله فلاسفة الحاضر أيضًا. بيد أنهم لا يفعلون ذلك في سبيل أن يكونوا معقدين. إنما مرام الفلسفة الشكية المعتدلة أن تقترب من الحقيقة، أو في الأقل أن تُظهر لنا ضآلة ما نعرف أو ما يمكننا أن نعرفه. لستَ محتاجًا إلى أن تخاطر بالسقوط من أعلى حافَة الجرف كي تكون شاكًّا من هذا النوع. إنما أنت في حاجة إلى أن تحضّر نفسك لطرح أسئلة صعبة وتفكر نقديًّا في الأجوبة التي يقدمها الناس إليك.

مع أن بيرون بشّر بالحرية من الاهتمامات طرًّا، فإن غالبنا يعجز عن تحقيق ذلك. واحد من هذه الأمور المقلقة حقيقة أن كل امرئ منا سيموت. لدى فيلسوف يوناني آخر، إبيقورس (Epicurus)، بعض الاقتراحات الذكية عن النحو الذي سيساعدنا على تقبل مثل هذا الأمر.

الفصل الرابع: درب الحديقة - إبيقورس

تخيل جنازتك. كيف ستبدو؟ من سيكون فيها؟ ماذا سيقولون؟ لا بد أن ما تخيله هو من منظورك الخاص. يبدو الأمر كما لو أنك ما زلت موجودًا هناك تشاهد الأحداث من مكان معين، أو ربما من الأعلى، أو على مقعد بين النادبين. الآن، يعتقد بعض الناس أن هذه إمكانية جدية، أننا في وسعنا بعد الموت أن نبقى على قيد الحياة خارج الجسد الفيزيقي باعتبارنا نوعًا من الروح التي قد تكون قادرة حتى على رؤية ما يجري في العالم. لكن بالنسبة إلى من يعتقد منا أن الموت ختامي، فثمة مشكلة حقيقية. في كل مرة نحاول فيها تخيُّل أننا غير موجودين، فعلينا فعل ذلك عبر تخيل أننا موجودين، ونشاهد ما يجري في حين أننا غير موجودين.

سواء أكنت قادرًا على تخيل موتك الخاص أم لا، فيلوح أنه من الطبيعي كفايةً أن تكون في الأقل خائفًا قليلًا من عدم الوجود. من ذا لن يخاف من موته الخاص؟ إن كان ثمة أي شيء ينبغي لنا أن نكون قلقين حياله، فهو هذا بالتأكيد. يبدو معقولًا تمامًا أن تغتمّ حيال عدم الوجود حتى لو كان هذا سيحصل بعد سني عديدة. إنه أمر غريزي. قلة من الناس على قيد الحياة لم تفكر *قطّ* في هذا عميقًا.

جادل الفيلسوف اليوناني القديم إبيقورس (341-270 ق.م.) أن الخوف من الموت كان مضيعة للوقت ومبنيًّا على منطق فاسد. لقد كان حالًا ذهنيةً ينبغي التغلب عليها. إن فكرت في هذا بوضوح، فليس على الموت أن يكون مرعبًا ألبتة. متى ما فكرت تفكيرًا سليمًا، فإنك ستستمتع بوقتك هنا أكثر بأضعاف - وهذا ما كان شديد الأهمية لإبيقورس. كانت غاية الفلسفة، كما اعتقد إبيقورس، أن تجعل حياتك أحسن حالًا، أن تساعدك على إيجاد السعادة. يعتقد بعض الناس أن الإسهاب في التفكير في موتك الخاص أمر مروع، غير أنه هذا بالنسبة إلى إبيقورس كان سبيلًا تجعل بها العيش أشد كثافة.

وُلِد إبيقورس في جزيرة ساموس اليونانية [شرق] بحر إيجه. أمضى غالب حياته في أثينا حيث صار شيئًا أشبه بشخصية معبودة، يجذب جماعة من التلاميذ الذين عاشوا معه في كوميون (بصورة حميمية).[4] تضمنت الجماعة نساءً وعبيدًا - وهذا ظرف نادر في أثينا القديمة. لم يجعله هذا ذا شعبية سوى بين تلاميذه الذين عبدوه تقريبًا. أنشأ مدرسته الفلسفية في منزل ذي حديقة - ولذا عُرِفت هذه المدرسة باسم الحديقة.

مثل عديد من الفلاسفة القدماء (وبعض الفلاسفة الحديثين، مثل بيتر سنجر: انظر الفصل الأربعين)، اعتقد إبيقورس أن الفلسفة إنما يجب أن تكون عملية. يجب أن تغير النحو الذي تعيش عليه. لذا كان مهمًّا لهؤلاء الذين انضموا إليه في حديقته أن يطبقوا فلسفته بدلًا من تعلّمها فقط.

كان مفتاح الحياة لإبيقورس هو إدراكك أننا جميعًا إنما نسعى إلى اللذة. أهم من هذا، أننا نتجنب الألم متى ما كانت لنا القدرة. هذا ما يسيّرنا. اطّراح المعاناة من حياتك وزيادة سعادتك سيحسّن من حال حياتك. لذا كانت أمثل طريقة للعيش هي كالآتي: فليكن لك نمط حياة بسيطة، وكن لطيفًا مع هؤلاء الذين من حولك، وأحط نفسك بالأصدقاء. بهذه السبيل ستكون قادرًا على إرضاء غالب رغباتك. لن تكون بذلك متروكًا في حال من الاحتياج إلى شيء ليس في وسعك نيله. ليس حسنًا أن يكون لديك توق مستميت إلى تملّك قصر إن كنت لن تحوز المال أبدًا لشراء واحد. لا تصرف حياتك كاملة على العمل سعيًا منك إلى الحصول على شيء من المحتمل أن يكون مجاوزًا لنطاق قدرتك

---

[4] أن تعيش في كوميون (Commune) يعني أن تعيش مع مجموعة من الأفراد التي تتفق في عيش مشترك واهتمامات واحدة وقيم واعتقادات واحدة، وعادة ما تنتفي هرمية العلاقات في مثل هذا النمط من العيش، وتكون الملكية مشتركة بين الأفراد. وهي من اللاتينية «**Communis**».

أيًّا ما كانت الحال. من الأفضل بأشواط أن تعيش بطريقة بسيطة. من السهل إرضاء رغباتك إن كانت بسيطة، وحينها سيكون لديك الوقت والطاقة كي تستمتع بالمهم من الأشياء. كانت هذه هي الوصفة للسعادة، وهي معقولة إلى حد كبير.

كانت هذه التعاليم شكلًا من العلاج. كانت بغية إپيقورس أن يعالج تلاميذه من الألم العقلي، وأن يقترح كيفية يمكن من خلالها للألم أن يصير محتملًا بتذكّر اللذائذ الماضية. أشار إلى أن اللذائذ ممتعة في وقتها، لكنها كذلك أيضًا عندما نتذكرها بعد ذلك، لذا فهي يمكن أن تكون ذات منافع لنا تدوم طويلًا. عندما كان يُحتضَر وفي شيء من المشقة، كتب إلى صديق عن الكيفية التي استطاع بها أن يلهي نفسه عن مرضه عبر استعادة المتعة التي كان يشعر بها من محادثاتهم في الماضي.

هذا كله يختلف بما فيه الكفاية عن ما تعنيه كلمة 'إپيقوري' اليوم. إنها على النقيض تقريبًا. فلان 'إپيقوري' يعني شخصًا يحب أكل الطعام الفاخر، شخصًا يسترسل في الترف واللذة الحسية. لقد كان لإپيقورس ذوق أبسط بكثير مما يفيده هذا. لقد علّم عن الحاجة إلى الاعتدال – أن تذعن للشهوات الجشعة سيخلق فقط المزيد والمزيد من الرغبات، ولذا في نهاية المطاف سينشئ هذا الألمَ العقلي الشديد والتوق غير المشبَع. هذا النوع من الحياة المتركز في الرغبة في المزيد والزيد يجب أن نتجنبه. هو وتلاميذه كانوا يتغذون على الخبز والماء بدلًا من الطعام الغريب. إن بدأتَ تشرب النبيذ الغالي الثمن، فإنك قريبًا جدًّا ستنتهي إلى الرغبة حتى في شرب نبيذ أغلى ثمنًا، وتقع في فخ التوق إلى أشياء تعجز عن امتلاكها. مع هذا، ادعى أعداؤه أن إپيقوريي كوميون الحديقة قد أمضوا معظم وقتهم يأكلون ويشربون ويمارسون الجنس بعضهم مع بعضهم الآخر في لهو معربد باستمرار. هكذا سار المعنى الحديث لكلمة 'إپيقوري'. إن كان حقًّا أن تابعي إپيقور فعلوا ذلك، فإن هذا يشذّ تمامًا عن تعاليم قائدهم. من المحتمل أكثر أن هذه إنما كانت إشاعة حقودة.

من الأشياء التي أمضى إپيقورس وقتًا طويلًا بالتأكيد في ممارستها هي الكتابة. كان خصب الإنتاج. تشير السجلات إلى أنه كتب ما يضارع ثلاثمئة كتاب في لفافات من البَردي، مع أن شيئًا لم ينجُ من هذه اللفافات. ما نعرفه عنه عادة مصدره الملاحظات التي كتبها أتباعه. تعلّموا كتبه بقلبوهم، لكنهم نقلوا تعاليمه إلى صورتها المكتوبة. نجا بعض لفافاتهم في مجموعة شذرات محفوظة في الرماد البركاني الذي سقط على هركولانيوم بالقرب من بومبي عندما ثار جبل ڤيزوفيو. ومصدر آخر مهم أيضًا للمعلومات عن تعاليم إبيقور هو القصيدة الطويلة *في طبيعة الأشياء* التي كتبها الفيلسوف الشاعر الروماني، لوقريطيوس (**Lucretius**). تلخص هذه القصيدة المنظومة بعد أكثر من مئتي سنة من موت إپيقورس التعاليم الأساسية لمدرسته.

إذًا للعودة إلى السؤال الذي طرحه إپيقورس، لِمَ ليس عليك أن تخاف من الموت؟ سبب أول أنك لن تختبر الموت. لن يكون موتك شيئًا يحدث *لك*. لن تكون موجودًا عندما يقع. رَجَع صدى مثل هذه النظرة فيلسوف القرن العشرين لودفيغ ڤتچنشتين عندما كتب في *رسالته المنطقية الفلسفية*: «ليس الموت شيئًا يحدث في الحياة». الفكرة هنا أن الأحداث أشياءُ نختبرها، غير أن موتنا الخاص هو انتزاع إمكانية الخبرة، لا شيءً لاحق يمكننا أن نعيه ونختبره فنظل على قيد الحياة بعد ذلك بطريقة ما.

يلمع إپيقورس إلى أن غالبنا عندما يتخيل موته الخاص، يخطئ في ظنّ أن شيئًا سيظل موجودًا بعده يجعلنا نشعر بأي شيء يحصل للجسد الميت. لكن هذا سوء فهم لحقيقة ما نحن. إننا مربوطون بأجسادنا المحددة ولحمنا وعظمنا المحددين. كانت نظرة إپيقور أننا مكوّنون من ذرات (مع أن ما عناه بهذا المصطلح كان يختلف قليلًا عن ما يعنيه العلماء الحديثون). متى ما تفككت هذه الذرات عند الموت، فإننا نعود غير موجودين باعتبارنا أفرادًا قادرة على الوعي. حتى لو اضطلع أحد بضمّ جميع الأجزاء معًا بحذر لاحقًا، ونفخ الحياة في هذا الجسد المعاد بناؤه،

فلن يكون شيئًا ذا صلة بي أبدًا. لن يكون الجسد الحي الجديد هو أنا، مع أنه يبدو مثلي. لن أشعر بآلامه، إذ متى ما كف الجسد عن العمل، عجز أي شيء عن إرجاعه إلى الحياة. سيُفك حينها وثاق الهُوية.[5]

كانت الطريقة الثانية التي اعتقد إبيقورس أنه يستطيع من خلالها أن يعالج أتباعه من خوفهم من الموت أن يشير إلى الاختلاف بين ما نشعر به إزاء المستقبل وما نشعر به إزاء الماضي. إننا نهتم بواحد ونتغاضى عن الآخر. فكر في الوقت الذي سبق ولادتك. كان كل هذا الوقت الذي لم تكن موجودًا فيه. ليس فقط الأسابيع التي كنت خلالها في رحم أمك عندما كان ممكنًا أن تولَد مبكرًا، ولا حتى ذلك الحين قبل أن تحبل بك وعندما كنت مجرد إمكانية لوالديك، إنما تريليونات السنين التي سبقت وجودك. لا نغتمّ عادةً بعدم الوجود طوال كل هذه الآلاف من السنين قبل ولادتنا. لِمَ على أحد أن يهتم بكل هذا الزمان الذي لم يوجد فيه؟ لكن بالتبعية، إن كان ذلك صوابًا، لِمَ علينا أن نكترث كثيرًا بكل هذه الدهور التي نكون فيها غير موجودين بعد الموت؟ إن فكرنا غير متماثل. إننا متحيزون كثيرًا تجاه الاغتمام بالزمان الذي سيلي موتنا بدلًا من الزمان الذي سبق ولادتنا. غير أن إبيقور اعتقد أن هذا كان خطأً. بمجرد أن ترى هذا، ينبغي لك أن تبدأ التفكير في الزمان الذي سيلي موتك بالطريقة نفسها التي تفكر من خلالها في الزمان الذي سبقه. بعدها لن يكون هذا الأمر ذا شأن بالغ.

يقلق بعض الناس كثيرًا من أنه قد يُعاقَب في الحياة الآخرة. رفض إبيقورس هذا القلق أيضًا. ليست الآلهة بمهتمة بخلقها حقًّا، كما أخبر إبيقورس أتباعه واثقًا. إنها توجد بمنأًى عنا، ولا تُعنى بالعالم. لذا عليك أن تكون على ما يرام. هذا هو العلاج - مزيج من هذه المحاجّات. إن أجدت، فينبغي لك الآن أن تكون في حال استرخاء أعظم بكثير إزاء عدم وجودك المستقبلي. لقد لخص إبيقورس فلسفته كاملةً في نقش ضريحه:

'لم أكن موجودًا، كنت موجودًا، لست موجودًا، لا أبالي'

إن كنت تعتقد أننا مجرد كائنات فيزيقية، مكونة من المادة، وأنه لا وجود لأي خطر عقاب جسيم بعد الموت، فقد يقنعك استدلال إبيقورس أن موتك ليس شيئًا يدعو إلى الخوف. قد تكون ما زلت قلقًا بشأن عملية الموت ما دامت غالبًا ما تكون مؤلمة وتُقاسى حتمًا. هذا صحيح حتى لو كان غير معقول أن تقلق من الموت نفسه. تذكّر مع ذلك أن إبيقورس اعتقد أن الذكريات الجيدة قد تسكّن الألم، لذا فقد كان عنده جواب حتى عن هذا. لكن لو كنت تظن أنك نفس في جسد، وأن النفس يمكن أن تنجو من الموت الجسدي، فمن غير المحتمل أن يجدي معك علاج إبيقورس: سيكون في وسعك أن تتخيل استمرارك موجودًا حتى بعد توقف قلبك عن النبض.

لم يكن الإبيقوريون وحدهم من فكروا في الفلسفة كنوع من المداواة: لقد فعل ذلك غالب اليونان والرومان. كان الرواقيون، بخاصة، مشهورون من جراء دروسهم عن الكيفية التي تكون بها صلبًا سيكولوجيًّا في مواجهة الأحداث التعِسة.

---

[5] فيزيقية إبيقور من هذه الناحية ذات غاية عملية، إذ هو بهذا يحرر الإنسان من الخوف من الآلهة والعالم الآخر، وهذا يساعد على الوصول إلى سلام الذهن وسكينته. إبيقور لم ينكر وجود الآلهة صراحةً، غير أنه أصر على أنها لا تتدخل في شؤون البشر، ولهذا على الإنسان أن لا يشغل نفسه بشؤون الآلهة. ومن حيث الموت فهو قد رفض الخلود، وأشار إلى أن الموت غياب كلي للوعي والشعور، وعدم أيضًا ما دام غيابًا كليًّا للوعي، فلِمَ إذًا الخوف من الموت والحال هذه؟ وتبنّيه مذهب ديمقريطس الذري مع بعض التعديلات، ساعده على الخلوص إلى مثل هذه النتائج.

الفصل الخامس: تعلُّم عدم الاكتراث - إبكتيتوس، سيسّرو، سنيكا

إن بدأ المطر يهطل في الآن عينه الذي كنت مضطراً فيه إلى مغادرة المنزل، فهذا أمر تَعِس. لكن لو كنت مضطراً إلى المغادرة، بصرف النظر عن ارتداء معطف مطر أو أخذ المظلة معك أو إلغاء موعدك، فليس بوسعك فعل الكثير بشأن هذا. لا يمكنك إيقاف المطر مهما أردت ذلك. أعليك أن تكون مستاءً من ذلك، أم أن تكون فلسفياً بشأنه؟ 'أن تكون فلسفياً' يعني ببساطة أن نتقبل ما تعجز عن تغييره. ماذا عن العملية الحتمية التي تكبر بها في السن وعن قِصَر الحياة؟ أي شعور هذا الذي عليه أن يثور فيك إزاء سمات الحال البشرية هذه؟ المِثْل مجدداً؟

عندما يقول الناس إنهم 'فلسفيون' إزاء ما يحصل لهم، فهم يستخدمون هذه الكلمة كما فعل الرواقيون. يشتق الاسم «رواقي» **Stoic** من رواق **Stoa**، وهو رواق مسقوف ذو أعمدة في أثينا حيث اعتاد هؤلاء الفلاسفة أن يتقابلوا. أولهم كان زينون (**Zeno**) من كيتيوم (262-334 ق.م). كان للرواقيين اليونانيين الأوائل وجهات نظر في مجال واسع من المشاكل الفلسفية عن الواقع والمنطق والأخلاق. لكنهم أكثر ما شهروا إنما من أجل آرائهم عن التوجيه العقلي. كانت فكرتهم الأساسية في أننا يجب أن نقلق فقط بشأن الأشياء التي في وسعنا تغييرها. وعلينا أن لا نغتاظ من شيء آخر. لقد سعوا مثل الشكاكين إلى حال سكينة الذهن. حتى عندما تعترضنا أحداث مأساوية، مثل موت شخص عزيز علينا، ينبغي للرواقي أن يظل هادئًا بلا تأثر. *سلوكنا* إزاء ما يحصل هو تحت تصرفنا حتى لو كان الغالب أن *ما* يحصل ليس كذلك.

نثوي في صميم الرواقية فكرة أننا مسؤولون عن ما نشعر به ونفكر فيه. نحن قادرون على اختيار رد فعلنا على الحظ الحسن والحظ السيئ. يفكر بعض الناس في عواطفه كما لو أنها الطقس. لكن الرواقيين، على العكس من ذلك، اعتقدوا أن ما نشعر به تجاه موقف ما أو حدث إنما هو مسألة تخضع لاختيارنا. ليست الانفعالات مجرد شيء يصيبنا. نحن لسنا مرغمين على أن نحزن عندما نفشل في حيازة ما نريد، كما لسنا مرغمين على أن نغضب عندما يخدعنا أحدهم. لقد اعتقدوا أن الانفعالات تغشّي الاستدلال وتضر بالحكم. علينا أن لا نوجهها فقط، بل حيثما كان ممكنًا أن نتخلص منها طرًّا.

بدأ إبكتيتوس **Epictetus** (55-135 م.)، وهو واحد من الرواقيين المتأخرين الأعظم شهرة، حياته عبدًا. تجشم الكثير من الصعاب وعرف الألم والجوع - كان في مشيته عرج من أثر ضرب مؤذ. عندما أعرب عن أن الذهن في وسعه أن يظل حرًّا حتى لو كان الجسد مستعبدًا، كان بذلك يستند إلى تجربته الخاصة. لم تكن هذه محض نظرية مجردة. لقد حوى تعليمه نصيحة عملية تتعلق بكيفية التعامل مع الألم والمعاناة. لُخّصت في هذه: «أفكارنا هي مسؤوليتنا». قد ألهمت هذه الفلسفة طيار الولايات المتحدة، جيمس ب. ستوكدال، الذي سقطت طائرته في فيتنام الشمالية في أثناء الحرب الفيتنامية. عُذب ستوكدال مرات عديدة وأُبقي في زنزانة حبس انفرادي طوال أربع سنوات. لقد استطاع أن ينجو بتطبيق ما تذكّره من تعليم إبكتيتوس الذي اطلع عليه من مقرر أخذه في الكلية. وإذ هبط بالمظلة نحو أرض الأعداء، أزمع الأمر أن يظل لا مباليًا بما فعل به الآخرون، مهما غلّظوا له المعاملة. إن عجز عن تغييرها، فلن يسمح لها بأن تؤثر فيه. لقد منحته الرواقية القوة كي ينجو من الألم والوَحدة التي كانت لتدمر غالب الناس.

بدأت هذه الفلسفة القاسية في اليونان القديمة، لكنها ازدهرت في الإمبراطورية الرومانية. كان الكاتبان المهمان اللذان ساعدا على انتشار التعليم الرواقي هما ماركوس توليوس سيسّرو/ كيكرو **Cicero** (106-43 ق.م.) ولوسيوس أنايوس سنيكا **Seneca** (1 ق.م. - 65 م.). كان قِصَر الحياة وحتمية الشيخوخة بخاصة هما الموضوعين اللذين أثارا اهتمامهما. لقد أدركوا أن التقدم في السن عملية طبيعية، ولم يحاولوا تغيير ما يتأبى على التغيير. في الوقت نفسه، اعتقدوا مع ذلك أن علينا أن نستغل وقتنا القصير هنا بأحسن ما يمكن.

بدا أن سيسرو قد شغل يومه أكثر من غالب الناس: كان رجل قانون وسياسيًا كما كان فيلسوفًا. في كتابه *عن الشيخوخة* حدد أربع مشاكل رئيسة للتقدم في السن: يصير من الصعب أن تعمل، ويضعف الجسد، وتتلاشى البهجة في المتع الجسدية، ويغدو الموت أكثر قربًا. جادل سيسرو في أن التقدم في السن أمر حتمي، لكن في وسعنا أن نختار استجابتنا نحو هذه العملية. علينا أن ندرك أن التقدم نحو أرذل العمر لا يتطلب أن يجعل الحياة لا تطاق. بادئ ذي بدء، غالبًا ما ينجح المسنون في العيش ببذل مجهود أقل نظرًا إلى خبرتهم، وعليه فإن أي عمل يعملونه يمكنه أن يكون ذا فاعلية أكبر. لن تتدهور أجسادهم وأذهانهم فجأة بالضرورة إن درّبوها. وحتى لو استحالت المتع الجسدية أقل إبهاجًا، ففي وسع المسنين إمضاء مزيد من الوقت في صداقاتهم وفي المحادثة، وهي أشياء مجزية كثيرًا بحد ذاتها. قد اعتقد سيسرو أخيرًا أن النفس تحيا إلى الأبد، فعلى المسنين أن لا يقلقوا بإزاء الموت. لقد كان موقف سيسرو أن علينا أن نقبل على السواء العملية الطبيعية في تقدم سننا، وندرك أنه من غير اللازم أن يكون الموقف الذي نواجه به مثل هذه العملية تشاؤميًّا.

أخذ سنيكا، وهو فيلسوف آخر عظيم أشاع وجهات النظر الرواقية، اتجاهًا مشابهًا عندما كتب عن قِصَر الحياة. لا تسمع الناس غالبًا يحتجون على أن الحياة طويلة جدًّا. فالغالب يقول إنها مفرطة القِصَر. يوجد أشياء كثيرة نفعلها، غير أن الوقت قصير كي يتسع لفعلها كافة. بتعبير اليوناني القديم أبقراط (Hippocrates): «الحياة قصيرة، والفن طويل» **Ars longa, vita brevis**. يرغب المسنون الذي يرون موتهم مقبلًا غالبًا في بضع سنوات أخرى فقط كي تتاح لهم القدرة على إنجاز ما أرادوه حقًّا في الحياة. لكن كثيرًا ما يكون هذا بعد فوات الأوان، فلا يبقى معهم سوى حزنهم على ما قد كانوا سيكونون عليه. الطبيعة قاسية في هذا الشأن. حالما تصير الأشياء تحت تملّكنا، نقضي نحبنا.

لم يوافق سنيكا على وجهة النظر هذه. باعتباره متعدد المهارات مثل سيسرو، فقد كان لديه الوقت كي يكون كاتبًا مسرحيًا وسياسيًا ورجل أعمال ناجحًا وفيلسوفًا بالمِثل. لم تكن المشكلة كما رآها أن حيواتنا وجيزة، إنما سوء تصرف غالب الناس بما يملكون من وقت. كان موقفنا، مجددًا، إزاء مناحي الحياة التي نعجز عن تجنبها في حالنا الإنسانية هو الأمر الأكثر أهمية له. علينا أن لا نغتاظ لأن الحياة قصيرة، إنما علينا أن نستغلها بأكبر قدر نضطلع به. لقد ألمع إلى أن بعض الناس سيبدد ألف سنة عاملًا فيها أقل ما يمكن بقدر ما هو الأمر في حياته التي يقضيها. وحتى بعد ذلك، فمن المحتمل أنه سيظل يحتج على أن الحياة كانت جد قصيرة. عادةً ما تكون الحياة، في الواقع، طويلة بما فيه الكفاية كي ننجز كمًّا غفيرًا من الأشياء إن قمنا بالخيارات الصائبة: إن لم نبعزقها في أمور عقيمة. يجري البعض وراء المال بقدر من الطاقة بحيث إنه لا يملك وقتًا لفعل المزيد، والآخر يقع في شَرَك إنفاق كامل وقت فراغه على الشرب وممارسة الجنس.

إن انتظرت حتى تصير مسنًّا كي تكتشف هذا الأمر، فسيكون الأوان قد فات طويلًا، كما اعتقد سنيكا. الشعر الأبيض والتجاعيد ليسا ضمانًا على أن مسنًّا ما قد أنفق كثيرًا من الوقت في فعل أي شيء ذي قيمة تذكر، حتى لو أن بعض الناس يتصرف متوهّمًا كما لو أنهما ضمان. هذا الذي يجر بسفينة وتصرفه الرياح العاصفة بهذا الاتجاه مرةً وبذاك مرةً لم يكن في رحلة. لقد تخبط وتقلب كثيرًا. وهكذا هو الأمر مع الحياة. أن تكون خارجًا عن زمام الأمور فتجرفك الأحداث دونما إيجاد وقت للتجارب التي هي أشد الأشياء نفاسةً ومعنًى، أمر يختلف كثيرًا عن العيش الحقّ.

واحدة من منافع أن تعيش حياتك بصورة حسنة، هي أنك لن تكون مجبرًا على الخوف من ذكرياتك عندما يتقدم بك العمر وتصير مسنًّا. إن أهدرت وقتك، فالأحرى أنك لن تريد التفكير في النحو الذي أمضيت به حياتك عندما ترجع بنظرك إلى الوراء، كما يحتمل أن تأمل الفرص التي ضيّعتها كافة سيكون أمرًا مؤلمًا جدًّا. وهذا مرد أن كثيرًا من الناس يصيرون إلى حال يشغلهم فيها عمل تافه، كما اعتقد سنيكا –

إنها طريقة يتجنبون من خلالها الحقيقة المتعلقة بما فشلوا في فعله. لقد ألزم قرّاءه أن ينأوا بأنفسهم عن الحشد ويتجنبوا التواري عن ذواتهم بشغل أنفسهم.

فأنى ينبغي لنا، تبعًا لسنيكا، أن نمضي وقتنا؟ كان المثال الأعلى الرواقي أن تعيش كالمتوحد، نائيًا بنفسك بعيدًا عن الناس. أشد السبل إثمارًا في الوجود، كما أعلن سنيكا بذهن فهيم، هي أن تدرس الفلسفة. كانت هذه سبيل من خلالها تكون حيًّا بحق.

أتاحت حياة سنيكا له فرصًا وفيرة كي يطبق ما كان يعظ به. في القرن الحادي والأربعين بعد الميلاد، اتُّهم أنه كان في علاقة غرامية مع أخت الإمبراطور چايوس. ليس واضحًا إن كان هذا صحيحًا أم لا، لكن نتيجة ذلك كانت أن نُفي سنيكا إلى كورسيكا طوال الأعوام الثمانية التالية. ثم عاد الحظ إليه مجددًا ودُعي كي يرجع إلى روما فيصير معلمًا للإمبراطور القادم ذي الأعوام الاثني عشر، نيرو. ثم خدم باعتباره كاتب خطبه ومستشاره السياسي. انتهت مع ذلك هذه الصداقة بصورة سيئة: بحيلة من حيل القدر. لقد اتهم نيرو سنيكا بأنه ذو يد في مكيدة تروم قتله. ما كان من مهرب لسنيكا هذه المرة. أخبره نيرو أن ينتحر. كان الرفض محالًا وسيؤدي إلى إعدامه على أي حال. المقاومة هنا ستكون بلا طائل. انتحر سنيكا، وكان -بإخلاصه لرواقيته- مسالمًا وهادئًا حتى النهاية.

واحدة من الطرق للنظر إلى التعليم الأساسي للرواقيين أن تفكر فيه باعتباره نوعًا من المعالجة النفسية، سلسلةً من التقنيات النفسية التي ستصيّر حياتك أكثر هدوئًا. تخلص من هذه الانفعالات المزعجة التي تعمّي تفكيرك وسيغدو كل شيء أشد بساطة. لسوء الطالع، مع ذلك، فحتى لو استطعت أن تهدئ انفعالاتك، فقد تلفى أنك فوّت شيئًا مهمًّا. وقد تقلص حال اللا مبالاة التي يؤيدها الرواقيون تعاستنا في وجه الأحداث التي نعجز عن السيطرة عليها. غير أن ثمن ذلك يمكن أن يكون أننا سنصير فاترين ومتحجري القلب، ومن المحتمل أيضًا أقل إنسانية. إن كان هذا ثمن تحقيق السكينة، فقد يكون باهظًا جدًّا.

مع أنه تأثر بالفلسفة اليونانية القديمة، فقد كان أوغسطين (**Augustine**)، وهو مسيحي مبكر سنتناول أفكاره تاليًا، بعيدًا عن أن يكون رواقيًّا. لقد كان رجلًا ذا عواطف شديدة واهتمام عميق بالشر الذي رآه في العالم وذا رغبة ملحة في فهم الله وخططه للبشرية.

الفصل السادس: من الذي يشد أوتارنا؟ - أوغطسين

لقد أراد أوغسطين (354-430) أن يعرف الحقيقة باستماتة. آمن بالله لكونه مسيحيًّا. غير أن إيمانه خلّف أسئلة عديدة لا جواب عنها. أي شيء أراد الله منه أن يفعل؟ كيف عليه أن يعيش؟ بأي شيء عليه أن يعتقد؟ لقد أمضى غالب حياته اليقظة مفكرًا وكاتبًا عن هذه الأسئلة. كانت الرهانات حاسمة. إذ بالنسبة إلى الناس الذي يعتقدون بإمكانية إمضاء الأزل في الجحيم، فاقتراف خطأ فلسفي يمكن أن يبدو ذا عواقب وخيمة. كما رأى أوغسطين إلى الأمر، فقد تؤول به الحال إلى الاحتراق بالكبريت إلى الأبد إن كان مخطئًا. كانت توجد مشكلة وحيدة أثقلت عليه وعذبته: لِمَ يسمح الله بوجود الشر في العالم؟ ما زال الجواب الذي قدمه شائعًا بين عديد من المؤمنين.

كانت الفلسفة والدين في فترة العصور الوسطى، أي تقريبًا من القرن الخامس إلى الخامس عشر، مرتبطتان معًا بشدة. تعلم الفلاسفة القروسطيون [أي الذين يرجعون إلى العصور الوسطى] من فلاسفة اليونان القدماء، مثل أفلاطون وأرسطو. لكنهم كيَّفوا أفكارهم، وطبقوها على أديانهم الخاصة. كان العديد من هؤلاء الفلاسفة مسيحيين، لكن كان يوجد أيضًا فلسفة يهود وعرب مهمون، مثل موسى بن ميمون وابن سينا أيضًا. يبرز أوغسطين، الذي أُعلِن قديسًا بعد وقت طويل، كواحد من أعظمهم.

وُلد أوغسطين في طاجستا، أي الجزائر في شمال إفريقيا حاليًّا، لكنها كانت آنئذ ما تزال جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. كان اسمه الحقيقي أورِليوس أغسطينوس (Aurelius Augustinus)، مع أنه أكثر ما يعرف الآن باسم إما القديس أوغسطين وإما أوغسطين من هيپّو (تيمنًا باسم المدينة التي عاش فيها لاحقًّا).

كانت أم أوغسطين مسيحية، أما أبوه فقد اتبع ديانة محلية [الأحرى أنه كان وثنيًا]. بعد شباب جامح وسن البلوغ التي أنجب خلالها ابنًا له من محظيته، تحول أوغسطين إلى المسيحية في ثلاثينياته، وقُلّد أَسقفًا لهيبّو. من المشهور أنه سأل الله أن يجعله يكف عن امتلاك رغبات جنسية «ولكن ليس بعد»، لأنه كان مبتهجًا بهذه المتع الدنيوية أيما تمتع. لاحقًا في حياته كتب مؤلفات عديدة منها *الاعترافات* و*مدينة الله*، وما يقارب مئة أخرى، مفيدًا بشدة من حكمة أفلاطون ولكن بمنحًى مسيحي.

يعتقد أغلب المسيحيين أن لله قدرات خاصة: فهو أو هي سامي الخيرية ويعرف الأشياء طرًّا ويقدر على فعل أي شيء. وكل هذا جزء من تعريف 'الله'. ولن يكون الله هو الله إن لم يكن بمثل هذه الصفات. في أديان أخرى عديدة، يوصَف الله بطرق مشابهة، غير أن أوغسطين كان مهتمًّا بالمنظور المسيحي فقط.

لكن ينبغي لأي أحد يؤمن بالله مع ذلك أن يعترف بالقدر الجسيم من المعاناة الذي يوجد في هذا العالم. سيكون من الصعب جدًّا إنكار هذا. جزء من هذه المعاناة نتيجة للشر الطبيعي مثل الزلازل والأمراض. وجزء يرجع إلى الشر الأخلاقي: الشر الذي ترتكبه الموجودات البشرية. القتل والتعذيب مثالان جد جليين على الشر الأخلاقي. وطويلًا قبل أن كتب أوغسطين، أدرك الفيلسوف اليوناني إيبقور (انظر الفصل الرابع) أن هذا يمثل مشكلة. أنى لإله خير وقدير أن يسمح بالشر؟ إن كان الله عاجزًا عن إيقاف وقوع الشر، فلن يكون حقًّا قديرًا. ستوجد حدود لما يقدر على فعله. لكن لو*أن* الله قدير وغير ميال إلى إيقاف هذه الشر، فكيف له أن يكون كامل الخيرية؟ لم يلح أن هذا منطقي. إنه أمر يحير أناسًا عديدين حتى في يومنا هذا. ركّز أوغسطين فكره في الشر الأخلاقي. لقد أدرك أن فكرة الله الخير الذي يعلم وقوع مثل هذا النوع من الشر ولا يحرك ساكنًا كي يمنع وقوعه هي فكرة صعبة الفهم. لم يكن راضيًا بالفكرة التي تقول إن الله يتحرك بطرق غامضة تتجاوز الاستيعاب البشري. لقد أراد أوغسطين أجوبةً.

تخيل قاتلًا يوشك أن يقتل ضحيته، مثبّتًا نفسه عليه مع سكين حادة. تصرف شرير بحق يكاد أن يحدث. لكننا مع ذلك، نعلم أن الله قوي كفايةً كي يوقف هذا الذي سيحدث. سيتطلب الأمر مجرد تغييرات بسيطة للخلايا العصبية في ما يرجى أن يكون دماغ القاتل. أو في وسع الله أن يحيل السكاكين طرية ومطاطة في كل وقت يحاول أحدهم استخدامها كسلاح مميت. بهذه الطريقة ستُرَد الضحية فقط ولن يؤذى أحد. لا بد لله أن يعلم ما يجري ما دام يعلم كل شيء إطلاقًا. ولا شيء يخفى عليه. ولا بد له أن يريد عدم وقوع الشر، إذ هذا جزء من معنى أن تكون سامي الخيرية. لكن مع ذلك، فالقاتل يقتل ضحيته. ولا تستحيل السكاكين المعدنية مطاطًا. ولا يوجد وميض برق، ولا صاعقة، ولم يقع السلاح من يد القاتل بأعجوبة. كما لم يغير القاتل رأيه في آخر دقيقة. إذًا ما الذي يجري؟ هذه هي مسألة الشر الكلاسيكية: مسألة توضيح سماح الله بمثل هذه الأشياء. إن كان محتملًا أن الأشياء كافة تنبع من الله، فلا بد أن الشر أيضًا مصدره الله. بمعنًى ما، لا بد أن الله قد أراد وقوع هذا.

كان عند أوغسطين في أيامه الأكثر شبابًا طريقة تجنب بها اعتقاد أن الله يريد وقوع الشر. لقد كان مانويًّا. كانت المانوية (Manichaeism) ديانة أصلها أساسًا من بلاد فارس (إيران في الحاضر). اعتقدت المانوية أن الله لم يكن سامي القدرة. بدلًا من هذا، كان بين قوى الخير والشر المتساوية صراع لا ينتهي ألبتة. لذا على وفق هذه النظرة، كان الله وإبليس مقيّدين في معركة مستمرة لتحقيق الغلبة. كلاهما كان شديد القوة، لكن أيًّا منهما لم يكن قويًّا كفاية كي يهزم الآخر. في أمكنة معينة وأوقات محددة، كانت الغلبة لإبليس. لكن هذا لم يدم طويلًا ألبتة. سيعود الخير ويحوز الظفر على الشر مجددًا. يصدر الشر عن القوى المظلمة، أما الخير فعن قوى النور.

في الفرد، اعتقدت المانوية أن الخيرية تصدر عن النفس. والشر يصدر عن الجسد، بكل ضعفه ورغباته وميله إلى أن يضلنا. بهذا فسر سبب ميل الناس أحيانًا إلى ارتكاب إثم ما. لم تكن مسألة الشر في المانوية بهذه الأهمية، لأنها لم تقبل فكرة أن الله من القوة بمكان بحيث يسيطر على كل جانب من الواقع. إن لم تكن لله قدرة على كل شيء، إذًا فإنه ليس مسؤولًا عن وجود الشر، وليس في وسع أحد أن يلوم الله على الفشل في منع الشر. كانت المانوية ستوضح أفعال القاتل بردها إلى قوى الظلام الثاوية فيه التي تقوده نحو الشر. إذ كانت هذه القوى شديد جدًّا في هذا الفرد، فلم تضطلع قوى النور بهزيمتها.

رفض أوغسطين نهج المانوية في وقت لاحق من حياته. إذ لم ير أي شيء هذا الذي يجعل الصراع بين الخير والشر أبديًّا. لِمَ لا يظفر الله في المعركة؟ أليس مؤكَّدًا أن قوى الخير كانت أشد من قوى الشر؟ مع أن المسيحيين يسلمون بإمكان وجود قوى شر، فإن هذه القوى لا تضارع قدرة الله في شدتها أبدًا. لكن مع ذلك، لو كان الله قديرًا حقًّا، كما سلم أوغسطين، فمشكلة الشر ستظل حاضرة. لِمَ سمح الله بالشر؟ لِمَ كان هناك قدر كبير منه؟ لم يكن يوجد أي حل سهل. استند حل أوغسطين الرئيس إلى وجود الإرادة الحرة: قدرة الإنسان على اختيار ما سيفعل تاليًا. غالبًا ما تعرف بمحاجة الإرادة الحرة. هذه هي نظرية العدالة الإلهية أو الثيوديسيا (Theodicy) – محاولة توضيح والدفاع عن مسألة سماح إله خير بوجود المعاناة.

لقد منحنا الله إرادة حرة. في وسعك مثلًا اختيار إما أن تقرأ الجملة التالية وإما أن لا تقرأها. هذا هو خيارك. إن لم يكن أحد يجبرك على مداومة القراءة، فإنك حر إذًا في التوقف عن ذلك. اعتقد أوغسطين بخيرية أن يكون المرء ذا إرادة حرة. هذا ما يسمح لنا أن نتصرف بصورة أخلاقية. في مكنتنا حزم أمرنا على أن نكون خيرين، وهذا ما عنى له أننا نتبع أوامر الله، وبخاصة الوصايا العشر، مثلما نتبع أمر يسوع في «أحبَّ جارك». لكن قدرتنا على تقرير فعل الشر هي عاقبة لامتلاكنا إرادة حرة. يمكننا أن نضل ونرتكب أشياء سيئة، مثل الكذب والسرقة وإيذاء أو حتى قتل الناس. يحصل هذا غالبًا حينما تغلب انفعالاتنا على عقلنا. إننا ننمي رغائب عنيفة تجاه الموضوعات المادية والمال. نذعن لشهواتنا

الجسدية ونُقاد بعيدًا عن الله وأوامره. اعتقد أوغسطين أن الجانب العقلاني منا ينبغي له أن يبقي على عواطفنا تحت توجيهنا، وهذه نظرة يتشاركها مع أفلاطون. الكائنات البشرية، على عكس الحيوانات، لديها مَلَكَة التعقل، وعليها استخدامها. إن برمجَنا الله كي نختار الخير دائمًا على الشر، فإننا لن نرتكب أي أذًى، غير أننا لن نكون أحرارًا فعلًا، كما لن نستخدم عقلنا في سبيل تقرير ما علينا فعله. كان في وسع الله أن يخلقنا على هذه الشاكلة. لكن أوغسطين جادل أن منح الله الخيار لنا كان أمرًا أفضل بأضعاف. وإلا كنا لنكون مثل الدمى وهذا الله يشد أوتارنا كافة بحيث نعدل سلوكنا دائمًا. لن توجد أي غاية من التفكير في كيفية التصرف ما دمنا سنصطفي الخيار الخير تلقائيًّا بصورة دائمة.

الله إذًا قوي كفايةً كي يمنع الشر طرًّا. لكن مع ذلك، واقعة أن الشر موجود ليست ناشئة مباشرة عن الله. الشر الأخلاقي نتاج خياراتنا. اعتقد أوغسطين أيضًا أنه في جزء منه نتيجة لخيارات آدم وحواء. مثل العديد من المسيحين في زمانه، كان مقتنعًا أن الأشياء آلت إلى السوء على نحو مريع في جنة عدن كما يصف ذلك المجلد الأول من الكتاب المقدس، سفر التكوين. لقد جلب آدم وحواء الخطيئة إلى هذا العالم عندما أكلا من شجرة المعرفة وخانا الله بذلك. لم تكن هذه الخطيئة، المدعوّة الخطيئة الأصلية، شيئًا أثر في حياتهما هما فقط. إنما كل إنسان يدفع ثمن هذا مطلقًا. اعتقد أوغسطين أن هذه الخطيئة الأصلية تمرَّر إلى كل جيل جديد بفعل التناسل الجنسي. وحتى الطفل في لحظاته الأولى يحمل آثارًا من هذه الخطيئة. تجعلنا الخطيئة الأصلية أكثر ميلًا إلى ارتكاب الإثم بأنفسنا.

بالنسبة إلى عدد غفير من قراء اليوم الحاضر، تعتبَر فكرة أننا موضع اللوم بطريقة ما وأننا نعاقَب من جراء فِعالٍ ارتكبها شخص آخر، أمرًا يصعب جدًّا قَبوله. يلوح أنه ظالم. بيد أن الفكرة التي تقول إن الشر نتيجة امتلاكنا إرادة حرة، لا إنه ناجم مباشرة عن الله، ما زالت فكرةً تقنع كثيرًا من المؤمنين – إنها تتيح لهم الاعتقاد بإله عليم وقدير وكامل الخيرية.

آمن بوئثيوس (Boethius)، وهو واحد من أشهر كتّاب العصور الوسطى، بمثل هذا الإله، لكنه تصارع مع قضية أخرى بشأن الإرادة الحرة: مسألة كيف لنا أن نختار أي شيء إن كان الله يعلم مسبّقًا ما سنختار.

الفصل السابع: عزاء الفلسفة – بوئثيوس

إن كنت في سجن منتظراً لحظة إعدامك، أستمضي حينها أيامك الأخيرة تكتب مؤلَّفًا فلسفيًّا؟ بوئثيوس فعل. وانتهى الأمر إلى أن يكون هذا أشد المؤلَّفات التي كتبها شيوعًا.

كان أنيسيوس مانليوس سِفرنيوس بوئثيوس (525-475)، كي نمنحه اسمه الكامل، واحدًا من آخر الفلاسفة الرومان. مات بعد عشرين عامًا فقط من سقوط روما في يد البرابرة. ولكن في الوقت الذي كان فيه حيًّا، كانت روما تنحدر مسبقًا. وفكّر في الفلسفة مثلما فعل زميلاه الرومانيان سيسرو وسنيكا باعتبارها نوعًا من العون الذاتي، طريقة عملية تحسّن بها مجرى حياتك بقدْر ما هي مراس على الفكر المجرد. كما إنه زوّد اليونانيين القديمين أفلاطون وأرسطو بخط اتصال، إذ ترجم أعمالهما إلى اللاتينية، محافظًا بذلك على أفكارهما حيةً في وقت كان يحيق بها خطر الضياع إلى الأبد. كونه مسيحيًّا، فإن كتاباته استمالت الفلاسفة المتدينين الورعين الذين قرؤوا كتبه في العصور الوسطى. إذًا أنشأت فلسفته جسرًا ينطلق من المفكرين اليونان والرومان إلى الفلسفة المسيحية التي ستسيطر على الغرب لقرون بعد وفاته.

كانت حياة بوئثيوس مزيجًا من الحظ الحسن والحظ السيئ. قلَّده الملك ثيودريكوس (Theodoric)، القوطي الذي حكم روما آنئذ، المنصب الأعلى للقنصلية. كما جعل ابنَيْ بوئثيوس قنصلين أيضًا كتشريف خاص له، مع أنهما كانا يافعين جدًّا كي يحققا منصبًا كهذا باستحقاقهما الخاص. بدا كل شيء يجري حسنًا له. كان غنيًّا، ومن عائلة طيبة، ومغدَقًا بالتمجيد والإشادة به. وبطريقة ما، استطاع أن يجد وقتًا للدراسات الفلسفية جنبًا إلى جنب مع شغله للحكومة، وكان كاتبًا ومترجمًا غزير الإنتاج. لقد كان يمضي وقتًا عظيمًا. بيد أن حظه تغير لاحقًا. إذ اتُّهم بالتآمر ضد ثيودريكوس، فنُفي من روما إلى رافينا حيث سُجن وعُذب وأُعدم بتضافر الشنق مع الضرب حتى الموت. دائمًا ما احتجّ بأنه كان بريئًا، لكن متهميه لم يصدقوه.

بينما كان في السجن، عالمًا بموته قريبًا، ألّف كتابًا غدا بعد موته في القرون الوسطى أشد الكتب رواجًا: *عزاء الفلسفة* ***The Consolation of Philosophy***. يفتتح الكتاب بوجود بوئثيوس في زنزانته شاعرًا بالأسى تجاه نفسه. يدرك على حين غرة أن ثمة امرأة تنظر من علّ نحوه. بدا أن طولها يتغير من المعتاد حتى يشمخ أعلى من السماء. وتتزيا بثوب ممزق ومُوَشًّى بسلّم يصعد من الحرف الإغريقي پاي **Pi** على حاشيته إلى الحرف ثيتا **Theta**.[6] في إحدى يديها [وهي اليسرى] تقبض على صولجان، أما في الأخرى فتحمل كتبًا. تبيّن أن هذه المرأة إنما هي الفلسفة. حينما تتحدث، فهي تخبر بوئثيوس بما عليه الاعتقاد. وهي غضبانة منه لأنه نسي أمرها، وجاءت تذكّره بالسبيل التي ينبغي له اتباعها في الاستجابة لما نزل به. يمثل ما بقي من الكتاب الحوار الذي جرى بينهما، وهو كله عن الحظ والله. في جزء منه مكتوب نثرًا، وفي آخر شعرًا. أما المرأة، أي الفلسفة، فتقدم له النصح.

إنها تخبر بوئثيوس أن الحظ في تغير دائم، فليس عليه أن يكون متعجبًا من هذا. هذه هي طبيعة الحظ. عجلة الحظ تدور. أحيانًا تكون في القمة، وأحايين أخرى تكون في القاع. وملك ثري قد يجد نفسه في غضون يوم فقيرًا. لا بد لبوئثيوس أن يدرك أن الأمر هو هكذا. الحظ عشوائي. ما من ضمان على أنك ستكون محظوظًا غدًا لأنك محظوظ اليوم.

---

[6] «يشير حرف **Pi** إلى البراكسس **Praxis** (الحياة العملية)، ويشير حرف **Theta** إلى الثيوريا **Theoria** (الحياة النظرية أو التأملية). بقول بوئثيوس في أول تعليقاته على مدخل فورفريوس إلى مقولات أرسطو: ثمة نوعان من الفلسفة: الفلسفة العملية، والفلسفة النظرية أو التأملية، ويبدأ اسماهما بالحرفين **Pi** و**Theta** على التوالي. تشمل الأولى الفلسفة الأخلاقية أو علم الأخلاق، وتشمل الثانية الثيولوجيا والميتافيزيقا والفيزيقا». انظر عزاء الفلسفة، بوئثوس، ترجمة عادل مصطفى ومراجعة وتقديم أحمد عتمان، دار رؤية، الطبعة الأولى 2008، الكتاب الأول، الهامش الثاني، صـ50.

الفانون، كما تشرح الفلسفة، أغبياء إذ يدعون سعادتهم تعتمد على شيء متغير كثيرًا. لا تجيء السعادة الحقة إلا من الداخل، من الأشياء التي في مكنة الموجودات البشرية أن توجهها، لا من أي شيء في وسع الحظ السيئ تدميره. هذا هو الموقف الرواقي الذي تناولنا في الفصل الخامس. عندما يصف الناس أنفسهم بأنهم ’فلسفيون‘ إزاء ما يحصل لهم من أشياء سيئة اليوم، فهو ذا ما يعنوه: إنهم يحاولون أن لا يتأثروا بأشياء خارجة عن سيطرتهم، مثل الطقس أو من هما والديهم. ما من شيء مريع في ذاته، كما تخبر الفلسفةُ بوئثيوس - كل شيء معتمد على الطريقة التي تفكر بها في [هذه الأشياء]. السعادة حال ذهنية، وليست حال العالم، وهي فكرة كان إبكتيتوس سيدركها باعتبارها خاصة به.

تريد الفلسفة من بوئثيوس أن يعود إليها مجددًا. فهي تقول له إنه قادر على أن يكون سعيدًا حقًّا على الرغم من كونه في السجن ينتظر أن يُقتل. وها هي ذي ستعالجه من قلقه هذا. ورسالتها هي أن الثراء والسلطة والشرف إنما هي باطلة عديمة القيمة، وهي تجيء كما يمكنها أن تمضي. ما من أحد عليه أن يؤسس سعادته على مثل هذه الأساسات القَصِمة. فالسعادة تنبع من شيء أشد صلادة، شيء يتأبى على الانتزاع. ولما اعتقد بوئثيوس أنه سيواصل حياته بعد الموت، فإن السعي إلى السعادة في الأشياء الدنيوية التافهة كان أمرًا خطأً. إذ إنه سيخسرها كافة عند الموت على أي حال.

ولكن أين في وسع بوئثيوس أن يجد السعادة الحقة؟ جواب الفلسفة عن هذا أنه سيجدها في الله أو الخيرية (آل هذان الشيئان إلى أن يكونا الأمر نفسه). كان بوئثيوس مسيحيًّا مبكرًا، غير أنه لا يذكر هذا في *عزاء الفلسفة*. فالإله الذي تصفه هذه الفلسفة قد يكون إله أفلاطون، مثال الخيرية المحض. بيد أن القراء اللاحقين سيقرّون بالتعليم المسيحي عن بطلان الشرف والثراء، وأهمية التركيز على مرضاة الله.

تذكِّر الفلسفة بوئثيوس طوال الكتاب بما يعرفه من قبل. وهذا أمر يستقيه من أفلاطون مجددًا، ما دام هذا الأخير يعتقد أن التعلم كله هو حقًّا نوع من تذكّر الأفكار التي نحوزها سابقًا. إننا لا نتعلم شيئًا جديدًا بحق ألبتة، إنما الأمر كله أن ذكرياتنا تُثار. الحياة صراع في سبيل استعادة ما كنا قد عرفناه في ما مضى. وما يعرفه بوئثيوس من قبل إلى حد ما، أنه كان مخطئًا في اغتمامه بفِقدانه الحرية واحترام العامة. فهذان الشيئان ليسا في نطاق سيطرته في الغالب. ما يُهم هو سلوكه إزاء مثل هذا الموقف، وهذا شيء في مكنته اختياره.

لكن بوئثيوس حارَ في أمره من جراء مشكلة أصيلة أقلقت عديدًا من الناس الذين آمنوا بالله. الله، باعتباره كاملًا، لا بد أن يعلم كل ما جرى، ولكن كل ما سيجري أيضًا. ونحن هذا ما نعنيه عندما نصف الله بأنه ’عليم‘. لذا إن كان الله موجودًا، فينبغي له أن يكون على علم بمن سيفوز بكأس العالم الآتي، وبما سأكتبه تاليًا. عليه أن يحوز علمًا مسبّقًا بكل ما سيحدث أبدًا. وما يقدّره عليه أن يحصل حتمًا. لذا فالله في هذه اللحظة يعلم إلامَ ستؤول الأشياء طرًّا.

يستتبع هذا كله أن الله يعلم ما سيكون فعلي التالي، حتى لو كنت غير متأكد ما سيكون. متى ما أقرر فعل شيء ما، فإن نسخًا متعددة من المستقبل تستلقي مبسوطةً لي. إن وصلت إلى مفترق طرق، قد أذهب يمينًا أو شمالًا، وربما أقعد فقط. باستطاعتي في هذه اللحظة أن أكف عن الكتابة، وأعدّ لي بعض القهوة. أو يمكنني أيضًا أن أقرر الاستمرار في الكتابة على حاسبي المحمول. تبدو هذه قراراتي، أشياء يمكنني أن أختار فعلها أو عدمه. ما من أحد يجبرني بطريقة أو بأخرى. وبالمثِل، قد تقرر إغلاق عينيك الآن إن أردتَ ذلك. أنى لهذا أن يكون في حين أن الله يعلم ما سنقرر فعله؟

إن كان الله يعلم مسبقًا ما سيفعل كلانا، فكيف لأيٍّ منا أن يملك خيارًا أصيلًا يتعلق بما سنفعله؟ أيكون الاختيار مجرد وهم؟ يلوح أنني عاجز عن امتلاك إرادة حرة إن كان الله على علم بكل شيء. قد يكون أن الله كتب قبل عشر دقائق على قطعة من الورق: ’سيستمر نايجل في الكتابة‘. لقد كان حقًّا إذًا، وتبعًا لهذا فإنني سأستمر حتمًا في الكتابة، أكنت قد أدركت ذلك في إبان ذلكم الوقت أم لا. لكن لو أن الله فعل

ذلك، فإنني دونما ريب لم أملك خيارًا في ما فعلت، حتى لو بدا الأمر عكس ذلك. إن حياتي قد خُططت لي في أشد تفاصيلها دقةً. وإن كنا بلا أي خيار في أفعالنا، فكيف يكون عادلًا أن تعاقبنا أو تثيبنا على ما نفعل؟ إن كنا لا نملك اختيار ما نفعل، فأنى يكون في وسع الله أن يقرر لنا إما أن علينا الذهاب إلى الجنة وإما عدم الذهاب؟

إن هذا لأمر محيّر. هذا ما يدعوه الفلاسفة مفارَقة **Paradox**. لا يبدو ممكنًا أن لامرئ أن يعلم ما سأفعل، وأظل أنا ذا خيار حر في ما أفعل. تبدو الفكرتان متناقضتين. مع ذلك، فإنهما معقولتان إن كنت تؤمن بأن الله عليم.

غير أن الفلسفة، أي المرأة في زنزانة بوثيوس، لديها جواب ما. تقول له إننا نملك إرادة حرة. وليس هذا بوهم. مع أن الله يعلم ما سنفعل، فإن حيواتنا ليست مقدّرة سلفًا. أو لنعبر عن هذا بنحو آخر، فإن علم الله بما سنفعله يختلف عن القدر الإلهي **Predestination** (فكرة أننا لا نملك خيارًا في ما سنفعل). إننا ما زلنا نملك الخيار في ما سنفعل تاليًا. إنما الخطأ أن تفكر في الله كما لو كان كائنًا بشريًّا يرى إلى الأشياء تتجلى وتتكشف في الزمان. تخبر الفلسفة بوثيوس أن الله سرمد، إنه خارج الزمان بالكلية.

ما يعنيه هذا أن الله يعي الأشياء من فوره. إنه يبصر الماضي والحاضر والمستقبل كشيء واحد. أما العالقون في شيء يقع ويلي آخر فإنهم نحن الفانون، بيد أن الله لا يرى الأشياء على هذا النحو. علة أن الله في وسعه أن يعلم المستقبل دون أن يدمر إرادتنا الحرة ويصيّرنا ضربًا ما من الآلات المبرمَجة مسبقًا بلا خيار ألبتة، هي أنه لا يراقبنا في زمان معين أبدًا. إنه يبصر الأشياء طرًّا بضربة واحدة وبطريقة سرمدية. كما تقول الفلسفة لبوثيوس إن عليه أن لا ينسى أن الله يحكم على البشر تبعًا للنحو الذي تصرفوا به، وللخيارات التي اجترحوها، حتى لو كان يعلم مقدّمًا ما سيفعلون.

إن كانت الفلسفة محقّة في ذلك، ولو كان الله موجودًا، فإنه يعلم بالتمام متى سأنهي هذه الجملة، لكن ما زال هذا خياري الحر أن أنهيها بنقطة هنا.

إنك في غضون ذلك ما زلت حرًّا كي تقرر قراءة الفصل التالي أو لا، وهو يستعرض دليلين على الاعتقاد بوجود الله.